جثة على شاطئ المتوسط

الناشر

www.darelnokhba.com

رئيس مجلس الإدارة
أسامة إبراهيم

المدير التنفيذى
سماح الجمال

المدير الفني
أحمد جابر

تصميم الغلاف
أحمد صادق

التصميم الداخلى
حسين الحماقى

دار النخبة
للطباعة والنشر والتوزيع
٣٣ شارع السنترال - المجاورة الأولى
- الحى الأول - مدينة الشيخ زايد -
الجيزة - مصر

تليفون: 00202 - 38511969
001 - 0128868875
E-mail: alnokhoba@gmail.com

الطبعة الثانية
1438 هـ - 2017 م

جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
10011 / 2017

الترقيم الدولى:
ISBN : 978- 977- 6580- 71- 8

جثة على شاطئ المتوسط

حسن أحمد يونس إبراهيم

(حسن قابيرو)

النخبة - ٢٠١٧

إهداء

إلى ذلك الكائن الهلامي المسمى زورًا وبهتانًا «الأمم المتحدة».

إلى جنرالات الحروب في أوطان التمزق.

إلى مافيا السلاح وتجار البشر.

وإليكم أيها المهاجرون حول العالم بمدن الضياع الذين ما زالوا ينتظرون دورهم لينالوا الاعتراف بآدميتهم، والذين عبروا منكم جسر الغياب فوق مياه البحر إلى أبد الأبدية ...

إليكم جميعا هذه الزفرات.

جثة على شاطئ المتوسط

كان بإمكانه النجاة من تلك الكارثة التي وقعت في ذلك اليوم المشؤوم عندما كان القارب المتهالك يترنح بهم، وتتقاذفه أمواج البحر المتوسط قبل أن تتناثر أجزاءه في ظلمات البحر، ويموت هو وثلاثمائة آخرين كانوا على متن القارب.

القرية اللغز

كان حسون قبل أن يغادر تلك المدينة التي مكث فيها أكثر من سبعة أعـوام؛ قضى معظمها متنقلًا على المترو والميكروباص والأتوبيس من مقر سكنه في شرق المدينة إلى أقصى غربها؛ حيث مقر مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين.

في كل لحظة من تلك الفترة لم يكن يتذكر سوى شيء واحد فقط: تلك القرية السودانية الوادعة؛ التي تقبع بين الجبال في ولاية جنوب كردفان جبال النوبة ...

لم تفارق القرية مخيلته أبدًا، فهي تمثل له كل شيء، وهي لمن لا يعرفها قرية تحيطها الوديان والمساحات الخضراء الواسعة، يمتهن أهلها الزراعة والرعي، وفي فصل الخريف بالذات تكون القرية أشبه بلوحة فنية جاد بها خيال فنان لا يمكن أبدًا أن يكون من البشر ، فهي آية تؤكد لجهابذة الإلحاد بأن هناك خالقًا ومصورًا لا يجاريه أحد مهما بلغ به الخيال.

ومنذ قدوم حسون إلى هذه الدنيا؛ عندما تفتحت عيناه على شمس تلك البقعة لم يفارقها إلا لضرورة قصوى أو خطب جلل، فهو

لا يتخيل أن في هذا الكون بقعة أجمل منها أبدًا...

هي ملاذه الآمن الذي يسرح ويمرح فيه دون خوف، ويستطيع أن يدخل كل البيوت دون حرج، ويمكنه قضاء أيام بلياليها مع أحد أصدقائه بمنزله، فلا يوجد أي تكلف بين جميع أهل القرية.

وحتى عندما يخطئ دون قصد أو بقصد، أو يتصرف أي تصرف غير لائق يجد من يقومه في الحال. إن كان هذا في السوق أو الطريق العام، أو أي مكان من أرض القرية، فأهل القرية كلهم راع ومسؤول عن من هو دونه في السن.

يتذكر جيدًا في ذلك اليوم عندما شاهده «حركة» مدير مدرسة القرية وهو يرمي بحجر كبير على شجرة السدر (النبق)، وهي شجرة مثمرة تقبع داخل سور المسجد من قديم الزمان، يتذكر كيف زجره زجرةً جعلته يرتعد خوفًا، ويهرب بعيدًا ليختفي من أمامه حتى لا ينهال عليه ضربًا بتلك العصا التي لم تفارقه.

وكان هذا الخوف سببًا أيضًا في عدم ذهابه إلى المدرسة في صبيحة اليوم التالي، مما جلب له المتاعب بعدما صحبه والده بنفسه إلى المدرسة، حيث نال أشد العقاب.

كان مدير مدرسة القرية شخصًا يهابه حتى الكبار أنفسهم، وهو لا ينتمي إلى القرية بصلة، هو جاء إليها من مناطق الشمال، ينحدر

من قبيلة الجعليين، عُرِف بالصرامة والجدية في كل تعاملاته. مهم، ودائمًا ما يحمل بيده كتابًا ضخمًا أثناء تجواله بسوق القرية، ويجلس مع شخص واحد فقط في زياراته المتكررة للسوق. هذا الشخص هو سليمان الجزار.

ولا ندري ما هو السر الذي يجمع النقيضين، إلا أن بعض الخبثاء من طلاب الصف السادس يقولون أنه يتودد لسليمان الجزار، ويتقرب منه ليتصدق عليه بربع كيلو من اللحوم التي يذبحها. والكل يعلم أن راتبه لا يمكن أن يكفي لما هو فيه من رفاهية خاصةً أثاث منزله الحكومي الذي لم يشاهد أهل القرية مثله من قبل.

إضافةً إلى رحلاته المتكررة من القرية إلى المدينة المجاورة، وقد شاهده الكثير وهو عائد من المدينة يحمل معه كميات كبيرة من الفواكه وأرغفة الخبز والخضروات التي غالبًا ما تجلب إليه بعض المتطفلين من ظرفاء القرية لينالوا نصيبهم من مائدته الفاخرة.

فالقرية تمثل لحسون كل ذكرياته الجميلة، وُلِد وتربى وترعرع فيها، لم تفارقه ذكريات الطفولة الوديعة، وتلك الأيام التي قضاها يلهو ويلعب مع فتيان وفتيات القرية تحت ضوء القمر الجميل، يتذكر كل الألعاب (شليل، ونط الحبل، ودس دس ...).

كان حسون آنذاك يُعَد من أشقى أقرانه الصبيان ...

ما زال يتذكر جيدًا تلك الليلة المقمرة أثناء قيامهم ببعض الألعاب هو ورفاقه عندما مرت على سماء القرية سحابة خريفية من فوقهم، وحجبت عنهم ضوء القمر قليلًا. يتذكر كيف مد يده خلسة ليلمس نهد أسماء التي كان حظها أن تكون بجواره.

أسماء هذه؛ تكبرهم قليلًا، وقد بدت ملامح أنوثتها تكتمل شيئًا فشيئًا، حيث أنها الوحيدة من بينهم التي كانت تحمل مثل هذه الأشياء التي جعلت من حسون الفتى القروي البريء وحشًا يريد أن يلتهم جسدها الملحم خاصةً نهديها المشرئبين إلى عنان السماء؛ فهي ناهد وذات قوام جميل وجسم مليء باللحم، يهتز كأنه جان.

هي دائمًا ما تستغل أنوثتها الطاغية لتفرض نفسها على تجمعات الصبيان في سمرهم الليلي، ولم يشاهدها أهل القرية يومًا تلعب مع الفتيات لوحدهن، فهي التي تجر دائمًا أرجل رفيقاتها إلى تجمعات الصبية رغم أن ليالي السمر تلك في مجموعات صغيرة للفتيات بعيدًا عن تجمعات الصبيان، لكن رويدًا رويدًا تقترب أسماء بمجموعتها حتى تخترق تجمع حسون ورفاقه في كل ليلة ليصبحوا فريقًا واحدًا.

لم يكن ليستطيع المارة التميز بينهم إلا بالأصوات، خاصةً عند اختباء القمر خلف السحب العابرة تلك اللحظة التي ينتظرها حسون لينقض بيديه الهزيلتين على نهد من تكون بجواره، ولأن أسماء

تستمتع بمثل هذه الأفعال دائمًا ما يجدها بجواره، فهي لا تمانع كبقية رفيقاتها، وحسون يجيد سرقة المتعة البريئة.

لا أدري كيف خطرت على حسون تلك الفكرة الشيطانية برغم طفولته خاصة وأن الإقبال على فعل مثل هذه الأشياء كان يُعَد من سابع المستحيلات في مجتمع قريته حتى بين الكبار أنفسهم.

فمثلًا محمد صلصه والكابلي وهما يُعَدان من شباب القرية المتمدنان نوعًا ما. ولقد استطاعا بحكم عملهما على العربة الوحيدة التي يملكها أحد تجار القرية أن يتنقلا بين القرية والمدينة التي لا تبعد عنها كثيرًا. وكان محمد صلصه يمتلك أعدادًا كثيرةً من السراويل المصنوعة من قماش الترفيرة الخالصة بألوان مختلفة وعدد من القمصان ماركة (تحرمني منك).

ولا يقل عنه مساعده الكابلي في امتلاك نفس الأعداد، الشيء الذي جعلهما بالفعل أميز شباب القرية في نظر كثير من فتياتها، خاصةً وأنهما كانا يجيدان التحدث بالعربية بطلاقة وبصورة أفضل من بعض أقرانهما من الشباب.

وبرغم كل هذه الامتيازات إلا أنهما لا يجرؤان على فعلة حسون ذلك الفتى الصغير، فكيف فعل حسون فعلته تلك التي تُعَد من المستحيلات في مجتمع القرية الوادعة الجميلة التي يرتبط جل

أهلها بروابط النسب والمصاهرة خاصة الحي الذي يسكنه. والذي يُعْتبر أهله من عائلة واحدة؟

فحيهم منعزل تمامًا عن بقية الأحياء، أو معزول بحكم تلك الممارسات التي يمارسها بعض أهل القرية تجاههم، حيث أن البعض كان يحسبهم من سلالة العبيد وينظر إليهم نظرة دونية، منذ تاريخ نشأة القرية.

كانت القرية آمنةً؛ يستطيع حسون ورفاقه السهر واللعب طول ساعات الليل لولا أن عليهم أن يستيقظوا مبكرًا كل يوم لأداء بعض المهام المؤكلة إليهم قبل ذهابهم إلى المدرسة الوحيدة بالقرية.

لقد تعود حسون ورفاقه على ذلك العمل منذ نعومة أظافرهم، حيث على الآباء والأمهات الذهاب مسافات بعيدة جدًّا لزراعة المحاصيل، وغالبًا ما تمتد فترة غيابهم عن المنازل لساعات متأخرة من النهار، فيعودون منهكين متعبين من عناء يوم شاق قضوه في زراعة محاصيلهم.

ولو أردنا أن نصف كيف كانوا يقضون كل هذه الساعات فسيسوقنا الحديث إلى سرد تفاصيل كثيرة نكتفي منها هنا بـ(النفير). والنفير هو تقليد قديم ورثه أهل القرية من أجدادهم واستطاعوا تطويره، وأضافوا له من إبداعاتهم المتعددة.

ففي كل مرحلة من مراحل الزراعة تستيقظ النساء من نومهن

مبكرًا جـدًّا؛ ليقمن بتحضير المأكولات الشعبية المعروفة لأهل القرية، وبعض المشروبات الساخنة كالشاي والقهوة، ويذهبن بها إلى المزارع، وذلك بعد أن يسبقهن الرجال ببعض الوقت؛ حيث يجدنهم قد قطعوا شوطًا في العمل، ويحتاجون لقليل من الاستراحة، وفي هذه الأثناء تكون النساء قد وصلن وكل واحـدة منهن تحمل على رأسها إناءً به شيء مما أعدته لإطعامهم.

ودائمًا ما تكون من بينهن واحـدة مميزة تحمل شيئًا لا يعلمه أغلبهن خاص بأحد الرجال الذي قام بتكليفها سرًّا للقيام بتجهيزه.

وبعد تناول الجميع إفطارهم، وخـلال استراحتهم تلك - التي ينقسمون فيها إلى مجموعات كل حسب عمره - تنسحب تلك المرأة إلى المجموعة التي غالبًا ما تكون من الشباب، وتضع أمامهم إناءً كبيرًا مليئًا بمشروب الـ(مريسة) الطازجة التي يحبذها الشباب، وهذا المشروب نوع من الخمر البلدي، يمدهم بالطاقة التي يحتاجونها، حيث يقع عليهم العبء الأكبر في إنجاز النفير، لذا هو ضروري لهم.

أمـا حسون ورفـاقـه من فتيان القرية فعليهم القيام ببعض الأعمال، كالاهتمام بالأغنام واصطحابها إلى الميدان الكبير بجوار سوق القرية، حيث تتجمع القطعان ويقوم الأهالي بتسليمها لراعي الماشية الذي يقوم هو الآخر بمهمة الرعي في الغابة المجاورة

للقرية، ويعود مساءً بقطيعه إلى نفس الميدان.

ولكن في رحلة العودة هذه لا تحتاج الأغنام إلى من يقودها إلى المنازل، فكل قطيع يسلك طريقة إلى منزل صاحبه في اصطفاف جميل ومرتب كأنه قد تدرب على ذلك في أكبر المعاهد، ويبدو أن الأغنام قد أخذت نظامها هذا من الراعي الذي تميز بحسه الفني الرائع.

هذا الراعي دائمًا ما كان يحمل معه آلته الموسيقية التي صنعها بيده ويجيد العزف عليها، ويتغنى بها من ألحانه وكلماته الخاصة في المراعي الطبيعية التي تحيط بالقرية وتلك الأشجار الضخمة المثمرة التي يستفيد من ثمارها في غذائه هو وأغنامه.

ولهذا نجده دائمًا هاشًّا باشًّا لا يعرف الغضب طريقه إليه إلا عندما يشاهد من بعيد جدًّا كلتوم قادمةً تتبع أغنامها إلى الساحة، فهو يعلم بأنها لا تقدم إلى الساحة إلا لتعكر صفوه، وتنهال عليه بالتهم والشتائم وتوصمه بسرقة الألبان من أغنامها في الغابة.

وكلتوم هذه هي عجوز تجاوزت الثمانين من الأعوام العجاف تعيش بمنزلها لوحدها، ولا أحد يعرف لها زوجًا ولا أبناءً، فمنذ قدومها إلى القرية قبل عدة أعوام لم يشهد لها أحد من سكان القرية زائرًا يدعي قرابته منها.

لقد اقطتعت أمتارًا مربعةً في الناحية الغربية من أرض القرية،

وشيدت بها كوخها من بعض الأعواد والأعشاب الجافة، وأقامت حوله سورًا من الشوك دون أن تحتاج في ذلك إلى إذن من أحد، وعاشت بمنزلها مع أغنامها وكلبها الوحيد (جركس) الذي يمثل لها الحارس الشخصي، ولا يستطيع كائن من كان أن يقترب من كوخها إلا بوجودها ذلك لشراسة كلبها المجنون.

وحتى عندما يحتاج حسون ورفاقه سرقة (التبش)، وبعض سنابل الذرة الشامي من مزرعتها التي أقامتها داخل السور الشوكي لا يكون هذا سهلًا لهم دون ممارسة بعض الحيل عليها؛ حيث يأتون في زيارة خاصة، ويتوددون إليها ويكيلون لها المدح الذي تحبه ليتمكن أحدهم من التسلل إلى المزرعة ،ويقطف ما استطاع في عجالة ويهرب من فتحة صغيرة في السور الشوكي استطاعوا فتحها في أحد الأيام.

ورغم الطيبة والسماحة التي كان يتميز بها سكان القرية فلا نجد أحدًا منهم كان مستعدًّا أن يشملها بهذه الميزات. الكل لا يحب حتى مجرد الاقتراب منها، فهي في شجار دائم حتى مع من يرمي السلام عليها. لقد استطاعت أن تفرض نفسها عليهم بالقوة الشيء الذي جعل المثقفين من أبناء القرية أمثال محمد صلصة والكابلي يردون تصرفاتها تلك إلى شعورها بالوحدة، حيث أنها شمطاء لم يترك لها شقاؤها ابنًا ولا زوجًا.

أما كوجاك فكان يقول للناس في القرية أن حالة العجوز كلتوم هذه تُسَمى بـ(مركب نقص). هذه الكلمة التي لم يجد لها أهل القرية تفسيرًا البتة، والتي نجزم بأن كوجاك نفسه لا يعلم ما تعنيه، ولكن يجمع أهل القرية أنه يحفظها عن ظهر قلب.

لم يستطع راعي أغنام القرية أن يجد راحته إلا بعد ذلك اليوم الذي شهد فيه أهل القرية وهم يحملون جثمان عدوته العجوز كلتوم، حيث أن حسون هو من اكتشف وفاتها في ذلك الصباح عندما ذهب إلى كوخها ليساعدها في فك قيود أغنامها ليصحبها مع أغنامه إلى الميدان الكبير جوار سوق القرية، فأخبر الشيخ جبريل إمام وخطيب مسجد القرية، والذي بدوره أذن في أهل القرية بنبأ الوفاة المفاجئة للعجوز.

وفي الغالب ما يكون راعي الأغنام شخصًا لا ينتمي إلى أهل القرية، حيث جرت العادة على أن يكون الراعي فتى في مقتبل العمر آت من عمق الجبال، فإما أن يكون قد جاء إلى القرية لوحده أو أن أحدًا من تجار القرية الذين يعملون في مناطق مختلفة من جبال النوبة قد جلبه معه، ولكن عند ذكر هذا الراعي بالتحديد نجد أنه لا ينتمي أصلًا لجبال النوبة، فهو من اسمه يتضح أنه من أبناء قبائل الدينكا.

ومن المعروف أن بلاد الدينكا هذه تبعد أميالًا كثيرةً من جبال النوبة، فكيف أتى هذا الفتى إلى القرية؟ هذا ما لم يكن يعلمه حتى شيوخ القرية أنفسهم.

إلا أن الكل قد شهد ذلك اليوم الذي اصطحبه فيه سليمان الجزار إلى مسجد القرية الكبير ليعلن أمام الملأ دخوله دين الإسلام، وقد تم منحه في نفس اليوم اسم محمد سليمان بدلًا من بول ميانج.

ورغم أن بول ميانج هذا أو محمد سليمان كان قد تجاوز الثلاثة عشر عامًا إلا أن أهل القرية قد أجمعوا على ختانه (لازم نطهر الجنقاوي ده) هكذا قالها أحد رجال القرية بعد ما أعلن تبرعه بتكاليف هذه العملية؛ التي يرى أنها ستدخله جنات الله بعد موته.

وفي اليوم الثاني مباشرةً من تاريخ إعلان بول ميانج الإسلام، وبعد قرار مجلس شيوخ القرية بختانه، وفي منزل سليمان الجزار بالتحديد اجتمعت الفتيات مبكرًا لإعداد هذه المناسبة التي تُعْتَبر من أصعب مهامهن لأن سليمان الجزار قد طلب من الجميع أن تُقَام هذه المناسبة بطريقة لا تقل أبدًا عن كل مناسبات الختان التي أُقِيمت لمن سبقوه من فتيان القرية، خاصةً وأن بول ميانج يُعَد غريبًا (لازم تعدنه كأنه مع أهله) هكذا قالها للفتيات.

كان سليمان الجزار يعد بول ميانج الابن البار الذي وهبته له السماء بعد أعوام كثيرة قضاها مع زوجته، ولم ينجب منها سوى بنت واحدة مصابة ببعض العيوب الخلقية، لذا كان لا يبخل عليه بكل ما يملكه.

وسليمان نفسه تقول بعض الروايات أنه ينتمي إلى قبيلة الدينكا

من أمه التي لم يرها أهل القرية من قبل، ولكن بعض الروايات تقول أن والد سليمان كان يعمل تاجرًا في بلاد الدينكا في قديم الزمان، وما الثراء الذي هو فيه الآن إلا من ميراثه من والده.

وتقول الرواية أن والد سليمان قد تزوج بامراة دينكاوية سرًّا وأنجبه منها، وجاء به إلى القرية وعمره لا يتجاوز آنذاك العامين بعد وفاة والدته بمرض خبيث، فتركه مع زوجته الأولى التي كانت في الأصل لا تعلم بهذا الزواج إلا بعد وصوله وبرفقته سليمان الصغير فامتثلت للأمر الواقع وقامت برعايته حتى فارقت هي الأخرى هذه الحياة.

ولا أحد يعلم هذه المعلومة سوى عدد قليل من الرجال والنساء الذين عاصروا ذلك العهد القديم، لذا كانوا يردون اهتمامه ببول ماينج إلى ذلك الدم الذي يجري بعروقه، وهذه الأسباب مجملةً هي التي جعلته يطلب من الجميع الاهتمام بختانه حسب ما كان يرويه البعض في سرية تامة.

كانت أسماء من أميز الحاضرات في ذلك اليوم، فقد جاءت وهي في أزهى أنواع الثياب، وأمسكت بيدها على آلة (الدلوكة) التي كانت تجيد الضرب عليها جيدًا كما أنها تجيد الغناء، فهي في تلك الأيام قد كُبُرَت وبرز نهداها، وصارت تنافس جميع فتيات القرية خاصةً وأنه قد ذاع صيتها، وأصبحت مشهورةً جدًّا بعد أدائها وصلةً غنائيةً ناجحةً في أحد

المناسبات التي أُقِيمت في إحدى القرى المجاورة قبل أسبوع فقط.

اجتمع أهل القرية في منزل سليمان الجزار وكان بول ميانج أو محمد سليمان في المنزل المجاور لمنزله مباشرةً. منزل صديقه حسون الذي اختاره ليكون وزيرًا له حسب العادة، ولأول مرة يرتدي بول ميانج مثل هذه الثياب في حياته، فهو في ذلك اليوم يرتدي أجمل أنواع الثياب وحوله فتيات وفتيان القرية وأسماء التي كانت تتغنى بأغنياتها الجميلة (يمة الزول براي بجيب الزول).

هذه الأغنية التي جعلت زوجة سليمان الجزار تتذكر أيام صباها التي ولت، فقامت بأداء رقصة رائعة جدًّا أدهشت كل من كان بالمكان.

وأما عربة القرية فقد عادت لتوها من المدينة وعلى متنها ضيوف سليمان الجزار الذين دعاهم لحضور هذه المناسبة التي أراد لها أن تكون أفضل من جميع مناسبات الختان التي جرت من قبل بالقرية تكريما لبول ميانج الذي أعلن الإسلام على يديه، وحتى يحس أيضًا بأنه قد أصبح بالفعل واحدًا من أهل القرية.

كان محمد صلصه سائق العربة ومساعده الكابلي قد أحضرا كل احتياجاتهما لحضور هذا الحفل الذي سيُقَام بعد تناول وجبة الغداء وانصراف النساء والرجال من كبار السن وتكون الساحة قد خلت تمامًا للشباب لممارسة الرقص والمرح احتفاءً بختان بول ميانج صاحب

حسون الذي صار اسمه من الآن محمد سليمان بعد اعتناق الإسلام.

زجاجتان من الخمر المحلي (عرقي) وأربعة علب من السجائر ماركة برنجي تخص الكابلي وحده. أما معلمه السائق محمد صلصه فقد توقف عن تدخين البرنجي لأن رتبته الرفيعة تلزمه أن يكون أفضل من مساعده، فهو الوحيد الذي يستطيع قيادة سيارة في هذه القرية، ويعرف كبار التجار بالمدينة المجاورة، ويجلس معهم أحيانًا كثيرةً وهم يدخنون السجائر ماركة البينسون، فلماذا لا يكون مثلهم؟ ماذا ينقصه؟

لهذا أحضر محمد صلصه زجاجتين من الخمر وخمسة علب من سجائر البينسون لتدخينها في هذه المناسبة التي لا شك أنه سوف يقابل فيها محبوبته السرية التي لا يستطيع الإعلان عنها حسب عادات أهل القرية.

وبالفعل كانت بتول تعشق محمد صلصه حد الجنون، ولكنها لا تستطيع هي الأخرى الجهر بهذا العشق المجنون لأنها أكثر ما تخشاه هو أن يعلم ابن عمها حمدان بهذه العلاقة فهو لا يتردد في قتلها أمام أعين والديها وإخوانها الصغار، فحسب عادات أهل القرية لا يحق ولا يجب أن تنشأ أي علاقة من هذه النوع بين شاب وشابة إلا بعد الزواج.

جلس بول ميانج الذي أصبح اسمه محمد سليمان وهو في ثيابه الجميلة تلك يتوسط فتيان وفتيات القرية وقد وضعت أسماء على كفيه

وقدميه عجنية الحناء وعلى جبينه هلال صغير مصنوع من الذهب الخالص تم تثبيته بقطعة قماش حمراء إهداءً من زوجة سليمان الجزار.

أما وزيره وصديقه حسون فقد كانت مهمته الأساسية جمع الهدايا التي يقدمها أهل القرية في مثل هذه المناسبات كما جرت العادة، فحسون نفسه قد أحضر معه ديكًا كبيرًا من قفص الدجاج الذي كانت تملكه والدته فطومة بنت حمدان، واستطاع في ذلك اليوم أن يجمع أعدادًا كبيرةً من الدواجن والأغنام لصديقه بول ميانج.

ذُبِحت الذبائح في ذلك اليوم، واجتمع جميع أهل القرية بمنزل سليمان الجزار، وتناولوا ما لذ وطاب من الطعام والعصائر، فقد تميزت هذه المناسبة بشيء لم يعهده أهل القرية من قبل وهو تعدد أصناف الطعام، ولأول مرة تحتوي موائدهم على الفواكه وأرغفة الخبز، فهم في كل المناسبات السابقة كانوا يكتفون بـ(الكسرة) وهي من أنواع الطعام الذي يُصنَع من الذرة المطحونة و(الكمونية) و(أم رقيقة) اللتين يعلمها جميع أهل السودان.

ولكن؛ ولأن سليمان الجزار قد أراد لهذه المناسبة بالذات أن تكون حديث أهل القرية إلى أن تأتي مناسبة أخرى أفضل منها قام بتكليف محمد صلصه ومساعدة الكابلي بإحضار بعض الفواكه وأرغفة الخبز من سوق المدينة.

في الحقيقة لم يتمكن حسون من تناول الطعام الفاخر في تلك اللحظة. لقد كان الأكثر نشاطًا في هذه المناسبة. قام بجمع الهدايا، واهتم بها، وهو الذي كان يقوم أيضًا بتقسيم المهام على أقرانه لخدمة الضيوف، كما أنه وبحكم شقاوته هو الوحيد الذي يتجرأ ويستطيع أن يشق جموع النساء ذهابًا وإيابًا لتزويد الضيوف بما يحتاجونه من الأكل والقهوة والماء.

وكان في كل مرة يذهب فيها داخل حوش النساء؛ يرسل نظراته نحوهن، فهو فتى منذ صغره يحب الجمال، ويبحث عنه في كل مكان، وهذه بلا شك فرصته الوحيدة التي يستطيع أن يشبع فيها مراهقته. خاصةً وأنه قد كبر قليلًا، وبدت عليه ملامح الصبا حيث أنه كان يكبر صديقه بول ميانج بثلاثة أعوام كاملة.

حل المساء وبدأ بعض الضيوف من كبار السن في الانصراف، أما الشباب فقد بدأوا يتوافدون إلى الساحة الكبيرة داخل منزل حسون الوزير التي ستكون مسرح الحفل الغنائي الراقص الذي سيُقَام احتفاءً بختان بول ميانج الذي أصبح اسمه محمد سليمان منذ ذلك اليوم الذي أعلن فيه اعتناقه الإسلام.

(عنقريب) كبير مصنوع من خشب التيك الخالص كان قد اشتراه سلميان الجزار أيام زواجه، وضع عليه برش صُبِغ ببعض الألوان.

يجلس عليه بول ميانج وبعض رفاقه، و(رتينة) كبيرة أضاءت أرجاء منزل حسون، وبعض كراسي الحديد التي أكلها الصدء جلبوها من مدرسة القرية. كانت هذه هي المعدات التي استطاع جمعها فتيان القرية في ساحة منزل حسون لإقامة الليلة الغنائية التي سوف تستمر إلى صبيحة اليوم التالي. فقد صادف اليوم الخميس والغد عطلة رسمية حتى للآباء والأمهات.

أما بالنسبة لمحمد صلصة ومساعده الكابلي فهذا اليوم يمثل لهم كل شيء. محمد صلصه سيلتقي ببتول وجهًا لوجه ويرقص معها، ويهمس لها بذلك العشق المدفون بين أضلاعه، فهو منذ أن شاهدها في ذلك اليوم ترافق والدتها وتمشي خلفها في خجل بسوق المدينة شعر بشيء ما يسري بداخله ويحدثه عنها دائمًا.

طيفها أبى أن يغادر مخيلته. سكن فيها قسرًا، فلم يستطع الصبر على ذلك العذاب اللذيذ، لذا أخبر مساعده الكابلي بمكنون قلبه المنفطر، فدله إلى عرافة ماهرة في قراءة الكف تقيم بحي الرديف وسط المدينة، كان الكابلي يتردد عليها باستمرار لتكشف له عن سر كرهه للنساء، قال له أنها تعرف كل شيء، ولا يوجد شيء يصعب عليها وطلباتها بسيطة جدًّا.

لقد طلبت منه فقط إحضار (ديك أعور) بعين واحدة، ويكون لونه

أسود، كان الكابلي خبيثًا جدًّا يريد أن يوقع بمعلمه محمد صلصة في المهالك، لذا أخفى عليه جوانب عديدة عن لقائه بهذه الساحرة أو العرافة.

لم يخبره بأنها طلبت منه الحضور إلى منزلها ليلًا بنية المبيت لتبدأ معه جلسات العلاج، وعندما فعل فُوجِئَ بها تهبط عليه وهو على السرير عاريةً تمامًا، وتضمه بين ذراعيها في تلك الليلة التي قرر فيها أن لا يأمن مكر النساء إلى الأبد، لكنه يريد أن يعطي معلمه محمد صلصة درسًا حتى لا يزعجه بسيرة النساء مرةً أخرى.

وبالفعل تمكن محمد صلصة من الوصول إلى تلك العرافة، وعلى حسن حظه لم تفعل معه ما فعلت مع مساعده الكابلي، طلبت منه فقط أن يخبرها باسم والدته بتول، ويأتي في اليوم التالي لأنها ستتولى الأمر ليلًا حسب الطقوس.

ولكنه عندما عاد في صبيحة اليوم التالي طلبت منه مزيدًا من المال لأنها وجدت معضلةً أخرى في بحثها ليلًا، ولكن بمقدورها الحل لأنها تستطيع أن تعمل سحرًا يجعل ذلك الشخص الذي يعارض فكرة الزواج كالحمل الوديع عندما يقابل المعلم محمد صلصة، وعليه أن لا يتردد في طلبها زوجةً له في أقرب وقت قبل نفاذ مفعول السحر.

وأما الكابلي مساعد محمد صلصه فكان من الشباب الذي لا يهتم بمثل هذه العلاقات كثيرًا، ليس له عشيقة سوى تلك الزجاجات من

الخمر، فاليوم خمر وغدًا أمر حسب ما كان يردد الكابلي، فهو منذ تلك الليلة التي قضاها قسرًا بين أحضان العرافة، وبعد فعلتها تلك أصبح يكره كل النساء ولا يكلم حتى والدته إلا للضرورة القصوى.

وفي أقصى ركن من ساحة الحفل بمنزل حسون كانت بتول تجلس في خجل تنتظر بكل لهفة قدوم فارسها محمد صلصه، ورغم أغاني الجاز والموسيقي الصاخبة التي عمت أرجاء المكان إلا أنها لم تتحرك قيد أنملة من مكانها.

كانت تنتظر بشوق لا يُوصَف قدوم محمد صلصه ليختارها لترقص معه، وتحكي له عن كل شيء، فهي تعلم أن ابن عمها حمدان خارج القرية قد سافر إلى مكان بعيد، ولن يأتي قريبًا لأنه يشرف على مشروع زراعي، ولا يستطيع مغادرة المشروع لأي سبب.

وحمدان هذا قد اشتهر في القرية بشراسته منذ صغره، كان يعمل مع بعض العصابات التي تقوم بترويع الآمنيين بمنطقة جبال النوبة، وذلك قبل اندلاع الحرب بكثير ،حيث كانت تنتشر مجموعات (الهمباتا) التي انتسب إليها حمدان، وهي تقوم بعمليات السرقة بالإكراه والقتل، لذا كان يهابه جميع أهل القرية كبارهم قبل الصغار.

أما بتول فتخشاه أكثر من كل شيء في هذه الحياة، فهو لا يتردد في زهق الأرواح لأتفه الأسباب، ولكنه في الآونة الأخيرة وبعد زواجه آثر

على أن لا يعود لتلك الأعمال التي تتنافى مع قيم أهل القرية، فتراجع قليلًا، ولكن لا يعني هذا أنه سيجامل في ما يراه يمس شرف عائلته.

كان الكابلي حينها قد فرغ من شرب زجاجة كاملة من الخمر الذي أحضره من المدينة خصيصًا لهذا اليوم وهو جالس تحت شجرة النيم الكبيرة أمام منزل سليمان الجزار وبجواره صديق طفولته كوجاك الذي ترك القرية منذ أعوام وانتقل هو وأسرته إلى المدينة بعدما وجد هناك عملًا في وظيفة شرطي بشرطة السجون، ولكنه بين حين وآخر يستطيع أن يأتي إلى القرية مع صاحبه الكابلي دون أن يخسر مليمًا واحدًا للأجرة.

هو والكابلي صديقان منذ القدم ويتشابهان في كل شيء، خاصةً أناقتهما، فهما يتميزان باقتناء الثياب الجميلة النظيفة، ودائمًا ما يضعان أجمل أنواع العطور، لذا فتيات القرية كن يتسابقن للفوز بالتقرب إليهما والحديث معهما فمجرد الحديث معهما يمنح الفتاة لقب (راقية).

محمد صلصة كان متزنًا يحسب ألف حساب لكل خطوة يخطوها ويتصرف بلياقه وأدب رغم تناوله الخمر. لم تبدر منه إطلاقًا بادرة تسيء له يومًا من الأيام، فحتى شيوخ القرية ونساؤها وأطفالها كانوا يحسبون له ألف حساب.

رتبته كسائق وحدها تكفيه لينال رضا أهل القرية، وكل واحدة من

فتيات القرية كانت تمني نفسها بأن يكون من نصيبها، فهو لا يقل عن عبد الله التمرجي الذي يدير الوحدة الصحية بالقرية ولا عن جدو المسؤول عن الدونكي، ولا عن حركة مدير المدرسة الابتدائية لذا كانت تتمنى جميع الأسر مصاهرته.

دخل محمد صلصة بهدوئه المعهود إلى ساحة الحفل، ووقف جانبًا وفي أقل من ثانية كان أمامه حسون يحمل كرسيًّا كان قد أخفاه بمعاونة بتول خصيصًا له، فحسون نفسه لا يشك في قدوم محمد صلصة إلى هذا الحفل، ويكن له احترامًا لأن له مآرب خاصة، فهو يريد التقرب منه حتى يسمح له بركوب العربة أثناء وجودها بالقرية.

لم تكن زيارة كوجاك للقرية هذه المرة كسابقاتها، فهو عند قدومه إليها المرة الفائتة اكتشف سرًّا جعله يقرر العودة في أقرب مناسبة بالقرية لكي يقوم هو بنفسه بتفكيك طلاسم هذا السر؛ الذي لم يخبر به حتى صديق طفولته الكابلي.

بعدما تناولا كل الخمر الذي كان بحوزتهما كان لا بد لهما التوجه إلى ساحة الحفل لاستعراض مهاراتهما في فنون الرقص الغربي الذي كانا يجيدانه بمهارة عالية، فهما الوحيدان اللذان يستطيعان أن يرددا الغناء خلف المطرب الذي كان يغني بالإنجليزية لإفريقيا وهو مشهور جدًّا في ذلك الزمان واسمه بوب مارلي.

دخل كوجاك وصاحبه إلى ساحة الحفل، وتقدم كوجاك نحو المنصة، وأمسك بالمايك وطلب من جمهور الحفل الالتزام بالهدوء، وردد جملته المعهودة (جانس فور قيلسي)؛ يريد بهذا أن يعطي الفتيات الفرصة والحرية الكاملة في اختيار من يرغبن في الرقص معه، وكانت هذه العملية التي قام بها كوجاك رائجةً في كل الحفلات آنذاك، ومعهودةً لشباب وشابات القرية.

كانت هذه الكلمات بمثابة رصاصة الرحمة التي أطلقها كوجاك على بتول التي كانت تحملق في فتاها المدلل محمد صلصة، فلم تصدق ما سمعت، وقامت مسرعةً نحوه واختارته ليرقص معها، وأثناء تلك الوصلة الغنائية الرائعة استطاعت بتول أن تهمس لمحمد صلصة بالحب.

لاحظ محمد صلصة أن بتول كانت في قمة النشوة والسعادة، لذا قرر في نفسه أن يذهب غدًا الجمعة إلى منزلها، ويطلبها زوجةً رسميةً له حتى تنتهي معاناته ومعاناة بتول التي أحبها بصدق وجنون، خاصةً وأنه قد تذكر وصية العرافة التي ذهب إليها والتي طلبت منه أن لا يتأخر في طلب الزواج خوفًا من نفاذ مفعول السحر الذي سيجعله في مواجهة مع ذلك الشخص الذي حسب ما قالت أنه سيعارض فكرة الزواج نهائيًا.

لم يلاحظ أحد اختفاء أسماء من ساحة الحفل. الكل كان مشغولًا يستمتع بالغناء والرقص عندما اختفت أسماء فجأةً دون أن يشعر بها

أحد. لقد أشار إليها كوجاك بإشارة مفادها أنه يريدها خارج ساحة الحفل بعيدًا عن أعين الناس، وفهمت إشارته تلك، فخرجت تتبعه إلى أن وصلا عربة القرية التي كانت تقف في مكان قريب من مكان الحفل.

صعدا إلى كابينة العربة معًا. لم تكن أسماء تتردد أصلًا من ممارسة المتعة مع كوجاك، وهي تعلم بأنه سوف يغادر القرية غدًا إلى المدينة، وتعلم أيضًا أنه يحفظ مثل هذه الأسرار، ولا يبوح بها لأحد، وهي منذ أن لمسها حسون في تلك الليلة أحست بشيء ممتع لا تستطيع التخلص منه، لذا كانت تمارس المتعة الذاتية مع نفسها منذ ذلك اليوم.

وفي داخل كابنية العربة أقاما لحظات حمراء قاربت النصف ساعة خلالها كان كوجاك يمرر يديه بين فخذيها ويقبلها، وهي في قمة النشوة لا تستطيع سوى أن تطلق أنفاسها الحارة على وجهه.

مرت تلك اللحظات على أسماء مرور البرق في السماء، فهي لم تشبع شهوتها بعد، ولكن تخاف أن يلحظ أحد اختفاءها المفاجئ، لذا طلبت من كوجاك الاكتفاء بذلك، ووعدته بلقاء آخر عندما تستطيع السفر إليه بالمدينة في أقرب وقت، فهي قد أحبته ولا تمانع بأن يفعل بها ما يشاء.

كان موعد آذان الفجر قد حان في تلك اللحظة وبه حسب ما جرت عليه العادة في القرية يكون الحفل الذي أُقِيم احتفاءً بختان بول ميانج أو محمد سليمان قد انتهى تمامًا.

الحرب

في ذلك الزمان وتلك الأيام بالتحديد التي استولى فيها نظام جماعة الإخوان المسلمين على مقاليد الحكم في السودان اشتدت الحرب على جميع جبهات القتال بالجنوب، وأعلنت الحرب الدينية الجهادية على الحركة الشعبية المسلحة في جنوب السودان.

حرب بين المسلمين في الشمال والكفار في الجنوب، وكان شعارهم الذي اتخذوه لهذه الحرب الشعواء هو (فليعد للدين مجده أو ترق كل الدماء).

وكان الرائد آنذاك حامد التوم دلدوم من ضمن الضباط الذين وقع عليهم الاختيار ليقود الكتيبة العسكرية التي ستعمل ببحر الغزال منطقة يرول العسكرية بالتحديد، كان بول ميانج آنذاك طفلًا لا يتجاوز عمره الثمانية أعوام.

وُلِد وترعرع تحت وابل النيران الصديقة وغير الصديقة، وقد تم أسر والده ميانج في إحدى المعارك العسكرية للجيش السوداني، وتمت تصفيته جسديًا، أما والدته شول فقد فقدت هي الأخرى إحدى ساقيها عندما كانت تحتطب في الغابة المجاورة للمدينة بفعل

لغم بشري كان مزروعًا هنالك في أرض الغابة، وأصبحت عاجزةً تمامًا لا تقوى على فعل شيء، لذا لزمت كوخها العشبي الذي كان يقبع تحت شجيرات المانجو بالقرب من حامية يرول العسكرية.

كان ابنها بول ميانج الوحيد الذي استطاع أن ينجو، ولكنه ما زال في مقتبل العمر ولا يقوى على العمل لإعالتها، لذا رأت أن تذهب به إلى الحامية العسكرية، وتتركه هناك مع الصبية لخدمة كبار الضباط وضباط الصف والجنود، لكي يأتي محملًا مساءً كل يوم بقليل من الخبز اليابس وبعض بواقي الطعام، حتى تستطيع أن تسد بها رمقها من الجوع اللعين الذي كاد أن يهلكها هي وابنها.

كان الرائد حامد التوم دلدوم رحيمًا برغم مهنته التي تتطلب بعض الشدة، فبعدما سمع منها قصتها كاملةً قرر أن يتبنى ابنها بول ميامج، وينقله من الحامية العسكرية إلى منزله الحكومي الذي كان يقيم فيه هو وزوجته وطفلاه الذين قدما معه من الخرطوم.

في الحقيقة لم يكن سليمان الجزار هو أول من عرض على بول ميانج اعتناق الإسلام كدين، فقد سبقته زوجة الرائد بكثير جدًّا في هذه المسألة، فهي أصلًا كانت قبل مجيئها إلى يرول برفقة زوجها كانت عضوًا بارزًا في أمانة المرأة بالحزب الإسلامي الحاكم، ونشطةً جدًّا في مجال الدعوة بحكم تخرجها من المعهد العالمي للدعوة والتوجيه الذي أنشأ الحزب، وذلك قبل لقائها بالرائد حامد،

وقبل زواجها منه بكثير.

فإذا كان قدر زوجها أن يحمل السلاح ليقاتل الكفار جهادًا في سبيل الله، فلماذا لا تستعمل هي الأخرى علمها وفكرها لدعوة الكفار للدخول في دين الله أفواجًا أو فرادى، فهذا الكافر الصغير بول لا بد إذًا سيكون أول المؤمنين على يديها بإذن الواحد الأحد، لذا رأت أن تضع لذلك خطةً محكمةً وبرنامج عمل خاص تستعمل فيه الترغيب بأسلوب ناعم ومغرٍ للصبي.

ولم تجد طريقًا أقرب إلى قلبه سوى بطنه الخاوية التي لم تحوي يومًا إلا بواقي طعام، فيجب أن تخصه هو ووالدته شول ببعض الطعام الفاخر، والهدايا القيمة.

وبالفعل وفي مساء ذلك اليوم كغير عادته عاد بول ميانج إلى كوخه العشبي الصغير المجاور لحامية يرول العسكرية، عاد محملًا بهدايا قيمة وطعام طازج أعدته لهم زوجة الرائد حامد شخصيًا، ظنًّا منها أنها بذلك ستجعله يرغب أكثر في دعوتها التي تنوي أن تجعله به أول المؤمنين.

وقبل أن يغادر بول ميانج إلى كوخه، قربته إليها وربتت على كتفه بلطف، ثم طلبت منه إذا ذهب إلى كوخه وأحضرت له والدته الطعام، أن يردد هذه العبارات قبل أن يبدأ في تناوله، بسم الله الرحمن الرحيم، ولا ينسى إذا فرغ من الأكل أن يقول أيضًا، الحمد لله رب العالمين.

لم تكن شول تعلم بما دار في منزل الرائد حامد بين زوجته وابنها

بول، لكنها تفاجاءت جدًّا عندما أعدت الطعام، ووضعته أمامهما ليتناولاه معًا، فسمعته يتمتم ببعض الكلمات العربية.

تعجبت لذلك جدًّا فهي منذ ولادتها بول ميانج كانت تطعمه بيدها ولم تسمعه في يوم من الأيام يتمتم بمثل هذه الكلمات، فسألته في دهشه بلغتها الدينكاوية الجميلة تستفسر عن مصدرها، فأخبرها بأن زوجة الرائد حامد هي من لقنته تلك الكلمات، وطلبت منه أن يرددها قبل الأكل في كل يوم وبعده أيضًا.

فهمت شول خطورة الموقف الذي وضعت فيه ابنها الوحيد، فهي التي ذهبت به إلى الحامية العسكرية، وهي السبب إذا في أن يترك ابنها (الكجور) الذي لا يؤمنون بغيره.

أحست بأنه سيضيع منها وإلى الأبد، فقررت أن تمنعه من الذهاب إلى ذلك المنزل ولا يهمها الجوع، فهما قد اعتادا عليه، وهي تفضل الموت جوعًا، ولكن لا ترغب أبدا أن يؤذي (الكجور) ابنها الذي تحبه أكثر من كل شيء في هذه الحياة.

عاد الرائد حامد لتوه من المأمورية القتالية متعبًا منهكًا تمامًا، ولكنه لاحظ عدم وجود بول ميامج بالمنزل، وسأل زوجته عنه فأخبرته بأن الصبي لم يأت إلى المنزل منذ أكثر من أسبوع، ولا تعلم عنه شيئًا، فربما أصابته حمى الملاريا المنتشرة بالمدينة.

حزن لذلك حزنًا كبيرًا فهو يحبه كحبه لابنيه، ولا يفرق بينهم

أبدًا، فإذا كان بالفعل غياب صبيه بول ميانج بسبب مكروه قد وقع، فلا يستطيع أن يسامح نفسه إطلاقا، فالرائد حامد رغم شراسته في ميدان القتال، إلا أنه يحمل بين جنبيه قلبًا رحيمًا ليِّنًا.

وضع سلاحه وخلع بزته العسكرية، وقبل أن يتناول كوبًا من عصير الأناناس الذي قد أعدته زوجته خرج مسرعًا في طريقه إلى كوخ شول المجاور للحامية العسكرية، وأثناء سيره لمح فتى صغيرًا تحت شجيرات المانجو المثمرة يضع أمامه إناءً مليئًا بسنابل الذرة المقلية معروضة للبيع، وعندما اقترب أكثر تأكد له أن هذا الفتى هو صبيه بول ميانج.

اصطحب الرئد حامد صبيه إلى الكوخ الصغير الذي يقطنه هو ووالدته، ولكنه لاحظ أنها لم تستقبله بتلك الابتسامة، وترحب به كما كانت تفعل من قبل في زيارته المتكررة لها، ففهم أن شيئًا ما قد حدث أثناء غيابه من المنزل، وبحنكته المعهودة قرر أن يسألها عما دار لابنها الصغير أثناء غيابه.

وبالفعل استطاع أن يفهم منها كل ما قامت به زوجته أثناء مأموريته القتالية، ووعدها بأنه سيعتني بابنها ويحاسب زوجته على فعلتها، ولن يتركه ليتعرض مرةً أخرى من بعد هذا اليوم إلى مثل هذه الأشياء، التي يعلم جيدًا مدى أثرها على من يعتقدون في (الكجور)، فصحب صبيه وعاد به إلى المنزل.

وبعد أسبوع من عودة بول ميانج إلى منزل الرائد حامد جمع له

بعض الهدايا من ملابس وطعام ودواء في تلك الأمسية التي قرر فيها زيارة والدته، فأعطاها له ليسلمها لها شخصيًّا، وتوجه مسرعًا إلى كوخهم وهو في الطريق يردد بعض الأغنيات التي كان يؤلفها من كلماته، يمدح فيها والدته بلغته الدينكاوية الجميلة.

لم يكن يعلم بأن الأقدار تخبيء له أسوء المفاجآت، فبينما هو في نشوته تلك، وعند باب كوخهم العشبي شاهد من بعيد والدته شول ملقاةً على الأرض بوجهها، ويخرج من فمها وأحشائها مادة صفراء عمت رائحته الكريهة أرجاء المكان.

رمى كل ما كان بيديه الهزيلتين وهرول مسرعًا نحو والدته يصرخ وينادي، ماه ماه ماه، ولكن لا حياة لمن ينادي بول الصغير، لقد فارقت والدته الحياة بعد اشتداد المرض عليها، فقد أُصِيبت بمرض الملاريا اللعين قبل أسبوع فقط من عودة ابنها للعمل بمنزل الرائد حامد.

عامان بالتمام والكمال هما المدة التي قضاها الرائد حامد التوم دلدوم في العمل بمنطقة بحر الغزال العسكرية؛ يحارب ويقاتل جيش الحركة الشعبية، وهو على رأس ثلاثمائة من الجنود وصغار الضباط وضباط الصف، ولكن في الغد سوف تقيم له كتيبته حفل الوداع لأن برقيةً بدرجة هام وسري للغاية من القيادة العليا للجيش بالخرطوم، تطلب منه تسليم قيادة القوة لقائد آخر، وعودته إلى الخرطوم فورًا.

وأما زوجته برغم أنها كانت لا تحب بول ميانج كما يحبه هو، إلا أنها

قد رأت فيه مشروعها الجهادي، لذا سمحت بوجوده ضمن أفراد أسرتها لينتقل معهم إلى الخرطوم، فهناك ستكون مهمتها سهلةً خاصةً وأن والدته شول الكافرة قد رحلت إلى الجحيم، وأصبح وحيدًا لا عائل له.

إذًا لا بأس في وجوده معهم، لتجعله هناك يؤمن بدعوتها، وتقيم لذلك احتفالًا كبيرًا بالقاعة الضخمة التي تحمل اسم أحد الشهداء، وبحضور جموع كبيرة من رجال الحزب الحاكم ورفيقاتها في الحركة الإسلامية أمانة المرأة اللائي تحب أن تسميهن بأخوات نسيبة، وذلك لتنال الترقية في صفوف الحزب، هذا الحلم الذي ظل يراودها أكثر من حلمها بدخول الجنة التي عرضها السموات والأرض.

استقل الرائد حامد التوم وزوجته وطفلاه وصبيه بول ميانج أول قطار من محطة سكك الحديد بيرول في صبيحة اليوم التالي مباشرةً متجهين إلى الخرطوم عاصمة السودان في الشمال.

كان الرائد حامد التوم دلدوم طوال ساعات الرحلة يوصي زوجته بأن تهتم بصبيه، وأن تعامله معاملةً حسنةً لأنه أصبح أمانةً في أعناقهم جميعًا أمام الله، خاصةً بعدما صار يتيمًا بوفاة والدته، وطلب منها أيضًا أن لا تحاول إجباره على اعتناق الإسلام على الأقل في هذه السن المبكرة من عمره، وتتركه ليصير مسلمًا مع مرور الأيام عندما يندمج في المجتمع الجديد الذي سينتقل للعيش في أوساطه بالخرطوم العاصمة.

كان الرائد حامد التوم مثقفًا جدًّا، وفوق ذلك كله يحمل درجة البكالوريوس في القانون من جامعة الخرطوم، وذالك قبل أن يلتحق بالخدمة في الجيش، وحتى عندما عُيِّن ضابطًا في الجيش السوداني.

كان يمارس العمل القانوني، فهو برتبة رائد حقوقي يتبع لفرع القضاء العسكري، لذا كان يرى أن واجباته المحافظة على حقوق الإنسان خاصةً الضعفاء منهم، أما في هذه الحالة، فإن المسالة تتعلق بصبيه، لذا كان يحذر زوجته بشدة من مضايقته خاصةً في مرحلته العمرية هذه، وعليها أن تحترم قرارته التي هي بمثابة تعليمات حسب الثقافة العسكرية التي كانت تسود العائلة بأكملها.

يتوقف القطار الذي يستقلونه في هذه اللحظات بالذات عند محطة سكك الحديد بمدينة بابنوسه بولاية جنوب كردفان، تلك المدينة الكردفانية الجميلة، التي يحمل الرائد حامد ذكريات لها لا يستطيع نسيانها، فهي أول مدينة زارها في الرحلة المدرسية عندما كان طالبًا بالمدرسة الثانوية في ثمانينيات القرن الماضي.

وبعد أكثر من أسبوع قضاه الرائد حامد وأسرته وصبيه على ظهر القطار؛ ها هو يتوقف الآن بمحطة سكك الحديد الرئيسية بمدينة بحرى، ثم استقلوا عربةً كانت بانتظارهم إلى قشلاق أبو حمامة، الذي كان يقطنه الرائد حامد قبل سفره إلى مأموريته العسكرية ببحر الغزال، والذي مكث فيها أكثر من عامين يحارب ويقاتل بكل شجاعة.

ولكن كان قدر الرائد حامد التوم أن يكون دائمًا رجل المهام الصعبة في كتيبته، لذا لم تدم إقامته بالخرطوم طويلًا هذه المرة، فقد اشتدت الحرب مرةً أخرى، وانتقلت لتعم كل مناطق جبال النوبة.

ولأن الرائد حامد ينحدر أصلًا من جبال النوبة، هو نوباوي من قبيلة الميري وله دراية كافية بالمنطقة يعرف كل الطرق والجبال، لذا وقع عليه الاختيار ليتوجه هذه المرة إلى منطقة جنوب كردفان العسكرية للعمل هناك.

وبعد مدة قصيرة قضاها هو وأفراد عائلته وصبيه بول بالخرطوم، ها هو ينتقل غدًا إلى جبال النوبة ليقيم فيها للعمل في جبهات القتال المشتعلة.

وبعد وصوله إلى تلك المدينة المشهورة بعروس الجبال، والتي أحبها صبيه بول ووجد نفسه في بيئة أقرب من بيئته التي وُلِد فيها ببحر الغزال، وأجمل من الخرطوم التي كان يجد نفسه فيها غريبًا طوال فترة إقامته هناك.

هنا حتى أشكال الناس وألوانهم وعاداتهم وتقاليدهم كلها تكاد تكون مألوفةً بالنسبة إليه، فهنا يمكنه أن يتحدث إلى الناس ويفهمون حديثه، ويمكنه أيضًا أن يتجول في شوارع المدينة كيفما شاء دون خوف، لأنه لم يشعر أبدًا منذ قدومه بأنه غريب في هذه المدينة التي أحبها، أما الرائد حامد التوم فله أكثر من أسبوع خارج المدينة منذ

يومه الأول مع جنوده يخططون لعملياتهم القادمة.

لم تكن زوجة الرائد حامد قد تمكنت طيلة مدة تنقلاتهم تلك من أن تنفذ مهمتها الجهادية في جعل بول ميانج يعتنق دين الإسلام، ولأن ابنيها قد كبرا أصبحت تخاف عليهما أن يقلدا بول ميانج في سلوكه، فهو لم يكن مسلمًا بعد ليذهب إلى المسجد، ليقلدانه في الذهاب إليه رغم أنه قد بلغ من العمر اثنتا عشر عامًا.

وجوده أصبح يمثل خطرًا على عائلتها، لذا رأت أن تستخدم فقه الضرورة، وتسيء من معاملة الصبي حتى يتركهم ويهرب من المنزل، ولا يهمها ما يقوم به زوجها الرائد حامد بعد عودته من موقع الكتيبة خارج المدينة، طالما أنها ستحمي بذلك أبناءها من الكافر الصغير بول ميانج.

وبالفعل لم يستطع تحمل تلك الإساءات والمعاملة القاسية التي تتعامل بها معه زوجة الرائد حامد، الذي غاب هذه المرة من المنزل لمدة طويلة جدًّا مع جنوده في مناطق العمليات خارج المدينة، لذا قرر الصبي الهروب من هذا الجحيم، فهو لا يفرق معه.

قد فقد أبويه وأصبح وحيدًا، ويمكنه أن يشق طريقه في هذه الحياة القاسية. هكذا قرر بول الصغير. وفي ذلك اليوم وبينما كان متجولًا بسوق المدينة، قرر أن يستقل أي عربة ولا يهمه وجهتها، المهم أن يبتعد عن المدينة نهائيًّا وأن يفارق زوجة الرائد حامد التي تنمرت في وجهه وإلى الأبد.

استقل بول ميانج العربة المتجة إلى أقرب قرية وفي أقل من ساعة وجد نفسه وحيدًا غريبًا في منطقة لم يشهدها من قبل، جلس أمام أحد المحلات التجارية بسوق القرية لا يدري ماذا يصنع بعد اتخاذ هذا القرار المصيري.

كان سليمان الجزار كعادته آخر من يغادر سوق القرية بعد بيع كل اللحوم التي يذبحها في ذلك اليوم الذي يصادف اليوم الرسمي لانعقاد سوق القرية والذي يتوافد إليه الناس من القرى والفرقان المجاورة لشراء احتياجاتهم، من مأكل وملبس وبعض الحبوب، ويبيعون أيضًا بضاعتهم التي جلبوها معهم.

وجد سليمان الجزار بول ميانج جالسًا حائرًا أمام أحد المحلات التجارية وقد غادر جميع الناس سوق القرية في تلك الساعة المتأخرة من النهار، وعم الهدوء موقع السوق الذي كان قبل ساعة فقط كأنه ساحة لكرنفال كبير أُقِيم خصيصًا لقدوم هذا الفتى الأبنوسي الأسمر، ما عدا تلك الكلاب التي كانت تتقاتل على قطعة عظم خالية من اللحم بجوار جزارة سليمان.

تعرف سليمان الجزار على بول ميانج بعد أن حكى له قصته، ولأن سليمان الجزار كان أصلًا في حاجة لمن يرعى أغنامه رحب ببول ميانج واصطحبه إلى منزله وأكرمه أيما إكرام، وطلب منه أن يقيم معه بمنزله، وأنه سوف يقوم براعيته ومعاملته أفضل معاملة. قبل

بول ميانج بعرض سليمان الجزار، ومكث معه إلى يومنا هذا.

أسبوعان بالتمام والكمال قضاها حسون مع صاحبه بول ميانج الذي صار اسمه محمد سليمان بعد إدخاله في دين الإسلام، ولأن حسون كان وزيرًا لبول ميانج أثناء مناسبة الختان التي أُجْرِيت له بعد إسلامه.

وحسب العادة كان لا بد لحسون أن يبقى بجوار صديقه المختون كل هذه المدة ليقدم له الخدمة التي يحتاجها، وهذا سيكون دينًا على بول ميانج أو محمد سليمان عندما يأتي موعد ختان صديقه حسون.

حسون ذلك الفتى الشقي الذي كان أول من تسبب في أن تصبح أسماء متمردةً على عادات وتقاليد القرية، عندما مد يده خلسةً ليمس نهديها في تلك الليلة، حيث كانا أطفالًا يتسامرون تحت ضوء القمر بشوارع القرية، الشيء الذي جعل أسماء في كل ليلة تمارس المتعة الذاتية مع نفسها قبل مقابلتها لصديقها كوجاك الذي تولى عنها المهمة.

مراهقة أنثى

بينما كان الكابلي مشغولًا بتحميل بعض الأغراض على العربة، فإذا به يُفَاجأ بيد تلمسه على ظهره برقة متناهية حتى سرت في جسده قشعريرة كاد أن يقع على الأرض من شدتها.

كانت تلك يد أسماء التي تريد منه أن يسمح لها بالسفر معه إلى المدينة، فهي لا تملك نقودًا كافيةً لتصرفها على الرحلة، لذا تتودد إليه بتلك الطريقة التي جعلته لأول مرة يتجاوب مع الفتيات، وبعد تدخل من محمد صلصة سائق العربة سمح لها الكابلي بالركوب.

كانت أسماء في ذلك اليوم في أزهى ثيابها، وكان شعرها يتدلى بشكل مموج وجميل على أكتافها، فهي قد اهتمت به جيدًا طول ساعات الليل، كيف لا وهي ستقابل صديقها كوجاك الذي سوف يصحبها إلى السينما كما وعدها في ليلتهم تلك التي قضوها داخل كابينة العربة.

ستقضي معه لحظات جميلة بدلًا من ممارسة المتعة الذاتية التي لا تستطيع القيام بها أحيانًا كثيرةً خوفًا من أن تشعر بها والدتها، فهي منذ أن كانت صغيرةً تلهو وتلعب مع فتيان القرية، وفي تلك الليلة بالذات عندما لمسها حسون الشقي على نهديها.

منذ تلك اللحظة ثارت شهوتها ثورةً لا تستطيع مقاومتها لوحدها، ولم تجد من يطفئ تلك النيران التي تأججت بداخلها أفضل من صديقها كوجاك، الذي سوف يفعل معها أكثر مما فعله بكبينة العربة في ليلة الاحتفال التي أُقِيمت خصيصًا لبول ميانج يوم ختانه.

في الحقيقة لم يذهبا إلى السينما فلقد طلب منها صديقها كوجاك أن يبقيا بالمنزل، ليقضيا أجمل اللحظات قبل أن تعود أدراجها إلى القرية غدًا، فمن الأفضل لها وله أن يستغلا هذه الساعات القليلة في إشباع شهوتهما.

وهو مهما فعل بها سيتزوجها حسب الوعد الذي قطعه على نفسه، خاصةً وأن أسماء أصبحت تحبه ولا تخفي هذا الحب على أهل القرية، فهي قد أصبحت حرةً تفعل ما تشاء وذلك بإيعاز من صديقها كوجاك عند زيارته السابقة للقرية.

وفي صباح ذلك اليوم الذي كانت فيه السماء ملبدةً بغيوم كثيفة وسحب لا يشك أحدا في أنها ستمطر مطرًا غزيرًا إيذانًا بقدوم موسم الأمطار، في تلك اللحظات بالذات وصلت أسماء إلى أسوء حالاتها الصحية على الإطلاق.

لقد بدا عليها الإعياء واضحًا لدرجة أنها كانت تحس بالدوار المستمر، والرغبة في استفراغ كل ما بجوفها، وكان شيء ما يتحرك داخل أحشائها لا تدري ما هو.

وكل ما كانت تتذكره أسماء هو أنها قد نامت نومًا عميقًا لفترة من الزمن لا تدري مقداره عندما كانت في زيارتها تلك لصديقها كوجاك بالمدينة، كما تتذكر أيضًا أنها بعد تناول وجبة العشاء الدسمة وبعض الحلويات التي أحضرها صديقها كوجاك من سوق المدينة، قد شربت كوبا من العصير الطازج فغلب عليها النعاس بعدها مباشرةً.

وراحت في نومها ذاك، وذلك قبل أن يعود صديقها كوجاك الذي استأذنها للخروج لإحضار علبة سجائر برنجي من المتجر المجاور، وعندما استفاقت من نومها جراء ألم شديد أسفل فخذيها لم تهتم بالأمر كثيرًا لأنها في تلك اللحظة قد وجدت بجوارها صديقها كوجاك يداعب خصلات شعرها ويقبلها بعد الفينة والأخرى.

تناست الألم في تلك اللحظة، فهل فعلها كوجاك؟ هذا فعلًا ما كانت تفكر فيه كلما اشتد عليها الألم، ولكن هي أيضًا لا تشك به فحسب رأيها كوجاك شخص أمين، ويحبها ويريد الزواج بها لذا لا يمكن أن يفعل بها هكذا فعلة.

إذًا؛ هي تتوهم فقط، فهذه الآلام ما هي إلا أعراض الملاريا لا غير، وموسم الأمطار معروف لجميع أهل القرية أنه موسم قدوم مرض الملاريا اللعين، هكذا بررت أسماء إحساسها بتلك الآلام التي لم تخبر بها حتى والدتها المسكينة.

المدينة القاتلة

لا يستطيع كل من يقدم على تلك المدينة التي تتوسط الجبال الشاهقة، أن يحبس أنفاسه من روائح الزهور التي تفوح بفعل الرياح فتعم أرجائها، كانت تلك المدينة تمثل له أجمل الذكريات، فهو لا ينسى أيام الصبا التي قضاها يتسكع بين شوارعها الجميلة الواسعة.

كثيرًا ما كان يمشي راجلًا أو على دراجته الهوائية من مقر سكنه بقعر حجر إلى المدرسة الثانوية التي درس فيها وأحبها، ومرات عديدة عندما يقترب وقت الامتحان يحمل كتبه ليذهب إلى خور الدليب، ويجلس على شاطئه الطيني تحت شجر الجميز الضخمة، التي حفر على جذعها بعض الكلمات بالأحرف الإنجليزية للذكرى.

إنها مدينة في حساباته تضاهي أجمل المدن السياحية في العالم، فهي عنده أجمل من دلهي وكوالا لامبور، وحتى دبي التي زارها وعاش فيها أكثر من ستة أشهر عندما كان يدرس بعض العلوم العسكرية، لم تكن قد تركت بداخله أثرًا كمدينته هذه، هذا ما قاله الرائد حامد التوم دلدوم لزوجته قبل أن يودعها للسفر في مأمورية قتالية إلى نفس المدينة.

كيف له إذًا أن يذهب إليها غدًا مقاتلًا تنفيذًا للأوامر التي تلقاها من قيادة الجيش باقتحامها وتحرير ها من قبضة فلول الحركة الشعبية، وكيف له أن يصوب فوهة بندقية نحو أهلها الذين يعرفهم جميعًا ويحبهم، فهو قد عاش بينهم أجمل أيام حياته، لذا لا يستطيع أن يقتل أحدا أو يحرق تلك المنازل والأشجار الجميلة حتى ولو احتمى بها العدو.

كانت تساؤلات كثيرة ومخاوف جمة تدور بذهنه، لا يستطيع أبدًا التعامل معها، فهو لأول مرة يجد نفسه عاجزًا تمامًا عن القيام بمهامه العسكرية التي كان يُعْتَبر من أفضل الضباط بين أقرانه للقيام بها.

وبينما كان الرائد حامد التوم دلدوم يقلب تساؤلاته تلك ومخاوفه في ذهنه، ويحاول أن يجد لها الحلول المناسبة، كانت القوة التي يقودها على بعد سبعين كيلو متر فقط من مشارف المدينة، لذا تمالك نفسه وطلب من نائبه أن يأمر القوة بالتوقف للإعداد للهجوم، وبالفعل استطاع الرائد حامد وجنوده اقتحام المدينة ليلًا.

ولكن لم يشاهده الجنود وهو يقاتل كما كان يفعل في العمليات السابقة التي شاركوه فيها القتال، كان الحزن قد بدا عليه جليًّا في تلك المعركة، ولم يطلق ولو رصاصةً واحدةً من بندقيته التي كان يحملها.

عندما وصلت القوة إلى خور الدليب شاهده الجنود يقف بجوار

شجرة الجميز الضخمة ويبكي، وبعدها تفرقت القوة لضراوة القتال ولم يشاهده أحد منهم حتى الآن.

في صبيحة اليوم التالي كانت جميع الإذعات السودانية ومحطات التلفزيون تضج بالأغاني الجهادية والمارشات العسكرية، وذلك قبل أن يمسك المذيع بأحد المحطات الكبيرة بالمكرفون ليبدأ في قراءة هذا البيان الهام:

«لقد تمكنت قواتنا الباسلة صبيحة هذا اليوم الجمعة الموافق ١٧ مارس ١٩٩٩م من اقتحام أكبر المدن وتحريرها تمامًا من فلول الحركة الشعبية العميلة، وكبدتهم خسائر فادحة في الأرواح والعتاد، واستولت على عدد كبير من المعدات والذخائر جاري حصرها الآن، وتحتسب قواتنا المسلحة عند الله تعالى شهداءها الأبرار الذين قضو في هذه العملية، وهم الرائد حامد التوم دلدوم ...»

وقبل أن يكمل مذيع الخبر باقي قائمة الشهداء وهناك بمدينة عروس الجبال، وبالتحديد داخل منزل الرائد وقعت زوجته على الأرض مغمى عليها تمامًا من أثر الصدمة، وراحت في غيبوبتها تلك التي أدخلتها المستشفى العسكري، فزوجها كان يمثل لها كل شيء في هذه الحياة، ولا تستطيع فراقه.

كان الرائد شهيد حامد التوم دلدوم طيلة مدة خدمته التي قضاها

ضابطًا بالجيش لم يخسر ولو معركةً واحدةً، فهو معروف بتكتيكاته العسكرية العالية ومهارته في التخطيط للقتال على مستوى الجيش كله.

لأجل ذلك هز هذا الخبر المؤسف القيادة العسكرية بأكملها، فأصدر القائد العام أوامره لعقد اجتماع طارئ لهيئة الأركان الحربية لدراسة الموقف ومناقشة أمر أسرة الرائد، والتي خرجت التوصيات بضرورة الإسراع في تكملة إجراءات عودتها من تلك المدينة القابعة بين الجبال في أسرع وقت.

أما هناك وفي مستشفى المدينة العسكري كانت زوجة الرائد شهيد حامد التوم دلدوم قد استفاقت لتوها من تلك الغيبوبة التي ألمت بها بعد سماع ذلك الخبر اللعين، وحولها ابناها وعدد غير قليل من المعزين في فقيد الوطن رائد شهيد حامد التوم دلدوم.

وفي ذات المستشفى العسكري الذي كانت تقيم به زوجة الرائد حامد التوم دلدوم والذي أمضت أسبوعًا بالتمام في العناية المركزة تتلقى العلاج فيه من أثر الصدمة التي أصابتها بعد نبأ استشهاد زوجها، كان بول ميانج أو محمد سليمان الذي هرب من منزل الرائد حامد لسوء معاملة زوجته منذ ما يقارب الخمس أعوام، كان يرافق سليمان الجزار الذي يعاني هو الآخر من مرض عضال.

وفي داخل حرم مسجد المستشفى العسكري بالتحديد التقى

ابن الرائد شهيد حامد التوم ببول ميانج بعد فراغ المصلين من أداء صلاة العصر مباشرةً، وتعرف عليه من الوهلة الأولى، وتبادلا تحية الإسلام المعروفة.

ولكن ما أدهش ابن الرائد حامد التوم أنه شاهد بأم عينيه بول ميانج الذي صار شابًا ونبتت لحيته يقف في الصف الأمامي مع المصلين ويؤدي الصلاة بكل خشوع، والآن هو يقف أمامه رافعًا كفيه لقراءة سورة الفاتحة والمعوذتين.

كيف صارت كل هذه الأشياء؟ أو لم يكن هذا هو بول ميانج الذي كانت تقول له والدته أنه كافر؟ ولا يجب أن يبقى معهم بالمنزل، وقامت بمعاملته أسوأ المعاملات حتى ترك المنزل وهرب؟

كان ابن الرائد شهيد حامد التوم يحمل نفس صفات والده من الرأفة والإنسانية والأخلاق لذا أراد أن يقدم اعتذارًا لبول ميانج، ولكن في تلك اللحظة قاطعه بول بسؤاله عن والده الرائد شهيد حامد التوم دلدوم.

لم يتمالك نفسه وبكى حتى سالت دموعه على الأرض، فهو ما زال حزينًا على فقد والده ولكنه استطاع أن يسيطر على حزنه قليلًا وأخبره باستشهاد والده، كما قال له أيضًا أنه الآن يرافق والدته التي حُجِزت بالعنبر رقم ٨ منذ أكثر من أسبوع هو تاريخ استشهاد والده

الذي أُصِيبت فيه بصدمة شديدة أدخلتها في غيبوبة كادت أن تلحق به لولا لطف الله عليهم.

تبع بول ميانج ابن الرائد شهيد حامد التوم في طريقهما إلى العنبر رقم ٨ بالمستشفى العسكري ليقابل والدته معزيًا في وفاة زوجها الذي كان يكن له احترامًا كبيرًا، نسبةً لأنه منذ أن كان يسكن معه في منزله الحكومي بحامية يرول العسكرية، ومرورًا بكل تنقلاته معه حتى تاريخ هروبه من المنزل.

لم ير في الرائد حامد التوم سوى أنه الملاك الرحيم الذي أنقذه من ويلات الحرب التي فقد بسببها والديه، لذا هو في أشد حالات حزنه، لقد حزن عليه أكثر من حزنه على والدته شول عندما شاهدها وهي تخرج تلك المادة الصفراء من أحشائها وتفارق الحياة أمام عينه في كوخها العشبي الذي يقبع بين شجيرات المانجو بالقرب من حامية يرول العسكرية.

دخل بول ميانج يتقدمه ابن الرائد شهيد حامد التوم إلى العنبر ٨، ووجدا زوجة الرائد جالسةً، وقد استعادت كامل وعيها، وما إن رأت بول ميانج حتى همت بالوقوف لتصافحه، ولكنه أقسم عليها وطلب منها أن تجلس ورفع كفيه بالدعاء وهو يقرأ سورة الفاتحة والمعوذتين جهرًا على روح الرائد شهيد حامد التوم دلدوم.

أُصِيبت زوجة الرائد بذهول شديد، وتسمرت في مكانها وهي تحملق فيه غير مصدقة ما ترى وتسمع، كادت أن تعود إلى غيبوبتها، ولكنها تمالكت نفسها قليلًا ومرت تلك اللحظات بخير.

وبعد فراغ بول ميانج من الدعاء وتقديم التعازي، تدخل ابنها وأخبرها بأنه تقابل مع بول ميانج داخل مسجد المستشفى عندما كانوا يؤدون صلاة العصر، وتعرف عليه وحكى له عن وفاة والده، لذا طلب منه أن يأتي لتقديم العزاء وأنه أيضًا قد أسلم وصار اسمه محمد سليمان.

وبينما كانت زوجة الرائد شهيد حامد تستمع إلى ابنها عن حديثه ومدحه لبول ميانج، ودون أن يشعرا به تمكن هو من الخروج مسرعًا من العنبر، واختفى تمامًا عن الأنظار.

برغم حزنه الشديد على وفاة الرائد حامد إلا أنه لا يستطيع أن يقف أمام زوجته أكثر من تلك الثواني التي قضاها معزيًا، ولو لا الواجب الذي يحتم عليه ذلك لم يتخيل نفسه يومًا أن يقبل حتى بمجرد النظر إليها من مسافة بعيدة.

هو لم ولن ينسى أبدًا تلك المعاملة السيئة التي كانت تعامله به، خاصةً تلك الجملة التي أغضبته يومها وجعلته يقرر الهروب من المنزل عندما قالت له (الله يلعنك يا عبيد يا كافر غور من وشي يلا) هذه الجملة ما زالت عالقةً بذهنه ولا يستطيع نسيانها مدى الحياة.

انتبهت زوجة الرائد حامد بعد فراغ ابنها من الحديث الذي كان يدور بينهما، انتبهت لعدم وجوده بالعنبر ٨ وعلمت أنه قد غادر ولا تستطيع رؤيته مرةً أخرى، لأنها تذكرت جيدًا ما قاله لها في ذلك اليوم قبل هروبه ومغادرته المنزل (يا مرا حامد أبوي تاني ما تلقاني في بيتك دا).

حزنت فوق ما هي عليه من حزن، خاصةً وأنها في تلك اللحظة قد تذكرت وصية زوجها عندما كانوا يستقلون قطار العودة من بحر الغزال، حينما كان يوصيها ويطلب منها أن لا تقسو على صبيه وتعامله بالحسنى ولا تجبره على اعتناق الإسلام لأنه وبلا شك سوف يصبح مسلمًا بالتدريج عندما ينتقل إلى المجتمع الجديد الذي سيعيش فيه بعد وصولهم عاصمة الشمال الخرطوم.

ليتها عملت بوصيته تلك فها هي نبوءة زوجها قد تحققت. لماذا لم تصبر عليه وتعمل بنصيحته؟

(يا ريتني يا ولدي لو كنت سمعت كلام أبوك وما شلت ذنب المسكين)

هذا ما قالته لابنها وهي تضمه في أحضانها وتبكي بكاءً شديدًا، وتدعو الله أن يسامحها على فعلتها تلك وتطلب من زوجها الميت المغفرة لما قامت به من مخالفة لوصيته، فهو الآن من الموتى، هل سيغفر لها ذلك الذنب إن كان حيًّا ولم يمت في تلك المعركة؟ وماذا تفعل الآن وكيف لها أن تعثر على بول ميانج مرةً أخرى لتطلب منه

العفو والمغفرة؟

لاحظ ابنها الحزن العميق الذي بدا عليها واضحًا وطلب منها أن تكف عن البكاء والتفكير في هذه الأمور الآن حفاظًا على صحتها، فهي ما زالت تشعر ببعض الدوار أحيانًا ولم تبلغ مرحلة الشفاء التام، وهو يخاف عليها من هذا الحزن، ووعدها بأنه سوف يبحث عن بول ميانج بنفسه فورًا في كل أنحاء المستشفى العسكري ويأتي به. عليها فقط أن تتابع تعليمات الطبيب المعالج الذي أوصى بعدم تعرضها لأي ضغوط من أي نوع في هذه المرحلة بالذات.

خرج ابنها مسرعًا إلى مكتب استقبال المرضى بالمستشفى عسى ولعله يعثر على اسم بول ميانج في قوائم المرافقين للمرضى، حتى يتمكن من معرفة رقم العنبر الذي يقيم به مع سليمان الجزار الذي كان يرافقه.

وبينما كان موظف مكتب استقبال المرضى يبحث في السجلات الموجودة أمامه توقف وأشار إلى اسم سليمان الجزار، وبدون أي مقدمات قال له الموظف (البركة فيكم يا أخوي أنت اتأخرت شوية والجماعة طلعوا هسع بالجثمان هو المرحوم بيبقى ليك شنو).

لقد انتقل سليمان الجزار إلى الرفيق الأعلى إثر تلك العلة التي لم تمهله وحملوا جثمانه على عربة القرية لكي يُوَارى الثري مساء اليوم بمسقط رأسه.

القرية المنكوبة

ظل طول الرحلة من المدينة وحتى مشارف القرية منكبًا بوجه على جثة سليمان الجزار يبكي حتى بح صوته من كثرة البكاء، وكان يردد بعض عبارات الرثاء الحزينة التي تركت أثرًا حتى على الكابلي مساعد محمد صلصة، فبكى وهو الذي لم يشهده أهل القرية يبكي يومًا.

وبرغم أن بول ميانج كان لا يجيد العربية بطلاقة إلا أنه قد استطاع أن ينظم مرثيته تلك بطريقة أحزنت جميع من كانوا يرافقون جثمان سليمان الجزار على متن عربة القرية، ولم يكن أحد من أهل القرية يمتلك وسيلة اتصال حديثة في ذلك الزمان حتى يستطيع إبلاغ الناس بنبأ وفاة سليمان الجزار، وبرغم هذا انتشر الخبر وعم جميع القرية قبل وصول الجثمان.

لقد شاهد حسون الذي كان على دراجته الهوائية داخل الغابة عندما كان يجمع بعض العشب بجوار الطريق الوحيد المؤدية إلى القرية، شاهد من مسافة بعيدة عربة القرية قادمةً وسمع كل من كان بها يبكي ويولول، فترك كل ما بيده وبسرعة البرق سبق العربة إلى القرية، وأخبر شيخ جبريل إمام وخطيب المسجد بما رأى وسمع.

وقبل أن يتحرى الشيخ جبريل الخبر جيدًا هرول إلى مسجد القرية يؤذن في الناس بنبأ وفاة سليمان الجزار ... عمت الأحزان القرية في الحال، فأهلها معروف عنهم تماسكهم في كتلة واحدة، جمعتهم القرية منذ مئات السنين، من قبائل وأعراق مختلفة، إلا أنهم استطاعوا أن يندمجوا ويتوحدوا بطريقة لا يستطيع من يأتي إليها في زيارة لأول مرة أن يتخيل أنهم متعددو الثقافات.

لقد استطاعوا أن يصنعوا لأنفسهم ثقافةً خاصةً أبهرت حتى أهل المدينة المجاورة لهم. فمنذ أن جمعتهم هذه البقعة الطاهرة أحبوا بعضهم، وكانت تجمعهم جميع المناسبات، ولا يمكن لأحد منهم أن يتخلف من أداء الواجب مهما كانت الأسباب. أما تاريخ نشأة القرية حسب بعض الرواة من أهلها فهي قد تأسست قبل المدينة نفسها.

ووسط تلك الأجواء الحزينة دخلت العربة إلى القرية وعلى متنها لفيف من الرجال والنساء الذين قدموا مع جثمان فقيد القرية سليمان الجزار، والذي وافته المنية بمستشفى المدينة العسكري بعد تلك الوعكة الصحية التي لم تمهله كثيرًا.

توقفت العربة أمام منزل المرحوم سليمان الجزار وما زال بول ميانج أو محمد سليمان لا يستطيع أن يسيطر على حزنه، ولكنه عندما رأى أهل القرية مجتمعين أمام منزل المرحوم سليمان في

انتظار الجثمان لإلقاء النظرة الأخيرة ووداع حبيبهم وجزار القرية الوحيد تمالك نفسه قليلًا ونزل ليبادلهم عبارات العزاء.

كان للشيخ جبريل أمام المسجد حضور لافت في تلك اللحظات، فهو الوحيد الذي يقع على عاتقه العبء الأكبر في مثل هذه المناسبات منذ تأسيس القرية، فعليه أن يتولى أمر الجثة منذ لحظة وصولها حتى موارتها الثرى.

أما بول ميانج الذي كان بمثابة الابن الوحيد للمرحوم سليمان الجزار، والذي لم ينجب سوى بنت واحدة رُزِق بها وهي مصابة بعيوب خلقية، لا تستطيع القيام بعمل شيء، فقد رأى أن من واجبه إكرام الضيوف، لذا شق الجموع الحزينة واستطاع أن يدخل إلى المنزل وولج إلى فتحة كانت تؤدي إلى حظيرة كان قد أقامها المرحوم ملاصقةً لمنزله ليجمع بها قطعان ماشيته.

أمسك بول ميانج بأكبر كبش وجده أمامه وطرحه على الأرض وأخرج مديته التي كانت لا تفارق ذراعه اليسري، فهي معلقة داخل جرابها الجلدي المزركش بطريقة رائعة كما يفعل جميع صبية القرية، (بسم الله، الله أكبر، كرامة وسلامة)، وذبح ذلك الكبش الضخم.

وفي تلك الأثناء دخل عليه صديقه حسون وقدم له التعازي وأخبره بأنه هو وأصدقائه الآخرين من شباب القرية، قد قاموا بتحضير

جميع احتياجات الضيوف، لقد عبأ حسون ورفاقه أعدادًا كبيرةً من البراميل بالمياه، وأحضروا كميات لا تُحْصَى من الخشب لاستعمالها في عملية الطبخ، كما استطاعوا أيضًا أن يجموا أعدادًا لا بأس بها من الكراسي والحصير (البروش) وبعض (العناقريب والبنابر).

ثم واصل حسون في إعانة صديقه بول ميانج في تجهيز اللحوم وتقطيعها وحملوها معًا إلى المكان المخصص للنساء لإعداد الطعام وإكرام الضيوف، وتوجها بعد ذلك نحو الصيوان الكبير الذي نُصِب لإقامة مراسم العزاء في فقيد القرية رجل البر والإحسان جزارهم الوحيد المرحوم سليمان الجزار.

مضت على وفاة المرحوم سليمان الجزار أكثر من أربع أشهر، هذه هي المدة التي قضتها زوجته حبيسة منزلها لا تخرج على الناس، وكانت بجوارها أسماء في تلك الفترة تقوم بواجبات المنزل كاملةً بلا كلل، وتهتم بصفة خاصة بمتعلقات بول ميانج أو محمد سليمان كما صار اسمه بعد اعتناق الإسلام.

أُعْجِبت زوجة المرحوم أشد الإعجاب بأسماء لدرجة أنها تمنت لو أنها تستطيع أن تجعلها تقيم معها بصفة دائمة، وبينما كانت تفكر في هذا الموضوع الذي شغلها كثيرًا خطرت عليها فكرة لم تكن قد حسبت لها حسابًا من قبل.

لمَ لا تقنع أسماء وأهلها حتى يزوجوها شرعًا لبول ميانج؛ الذي ترفض أن تسمع أحدًا من أهل القرية يناديه بهذا الاسم القديم، فهو عندها قد أصبح محمد سليمان ويجب أن يكون محمد سليمان عند جميع أهل القرية.

وفي تلك اللحظة طلبت منها أسماء بأن تسمح لها بالعودة غدًا إلى منزلها، وأنها ستكرر زياراتها لها باستمرار عليها فقط أن تطلبها للخدمة متى ما احتاجت لذلك.

وبعد تردد كبير من زوجة سليمان الجزار، وفي المساء بالتحديد قبل أن تحزم أسماء أمتعتها عائدةً إلى منزلها طلبت من أسماء أن تحضر لتجلس بجوارها، هي تريدها في موضوع مهم جدًّا، ويجب أن تتحدث معها فيه الآن ...

- يا أسماء بتي والله أنا دايرة أقول ليك كلام لكن خايفة تزعلي مني.

- أزعل منك كيف يا أمي؟ أنا والله لو كفتيني عديل ما بقدر أرفع عيني دي عليك.

هذا هو الحوار الذي دار بينهما قبل أن تطلب منها زوجة المرحوم بكل صراحة أنها تريدها زوجة لبول ميانج، الذي لم تناديه بهذا الاسم منذ اعتناقه الإسلام على يد زوجها المرحوم.

أما هناك وفي سوق القرية وبالتحديد داخل جزارة المرحوم

سليمان الجزار كان بول ميانج مشغولًا بتوزيع اللحوم التي يبيعها لزبائنه من زوار السوق الذين توافدوا إليه من القرية والفرقان المجاورة لشراء احتياجاتهم من مأكل وملبس وبعض الحبوب، ويبيعون بضاعتهم التي أحضروها معهم ليعودا أدراجهم في المساء إلى حيث أتوا محملين بخيرات القرية.

لقد أصبح بول ميانج من أكبر تجار القرية في مجال بيع اللحوم بعدما خلف المرحوم سليمان الجزار، في إدارة شؤون الجزارة الوحيدة بها، ولم ينس أبدًا صديقه حسون. لقد عينه معه وأوكل إليه بعض المهام التي تخص المهنة، فهو لا يجيد العمليات الحسابية المعقدة، وحسون قد تلقى تعليمه الابتدائي بمدرسة القرية، ويجيد القراءة والكتابة، وهو صديقه الوحيد منذ اختياره ليكون له وزيرًا أيام ختانه، لذا لا يجد أحدًا أفضل منه.

استطاع بول ميانج بمعاونة صديقه حسون أن يوسع في عملياته التجارية، وقام بإنشاء عدد كبير من أماكن بيع اللحوم بالمدينة، وأصبح ينافس حتى كبار تجار المواشي، وكان حسون هو من يشرف على كل تلك الأعمال قبل أن يضاعف له صديقه بول ميانج المهام بشرائه عربةً جميلةً من أحد التجار المزارعين (الجلابة) الذين تعرف عليهم في زياراته المتكررة لتفقد محلاته.

وبعد القيام ببعض التعديلات ووضع الزينة التي طلب حسون إجراءها على العربة الجديدة، وكتابة عبارة كان يحبها وهي (المتوكل هجام الجبال) كان قد شاهدها مكتوبةً على إحدى العربات التي تأتي إلى المدينة من الشمال، وبدون مقدمات تفاجأ أهل القرية بقدوم بول ميانج وصديقه حسون وهم على عربتهم الجديدة التي ستنافس العربة الوحيدة بالقرية، والتي كان يقودها محمد صلصة ومساعده الكابلي.

شارفت أمنية زوجة المرحوم سليمان الجزار أن تتحقق عندما جاءتها بمنزلها أسماء تصحبها والدتها في زيارة مفاجئة ذلك المساء. فرحبت بهما أحسن ترحيب، وقدمت لهما العصائر الطازجة التي كان يحبها بول ميانج.

وأثناء تناولهن القهوة التي أعدتها أسماء بيدها بادرت والدة أسماء بالحديث..

- والله يا أختي نحن من زمان حاسبنك مننا وفينا خاصة لما كان أبوكم المرحوم حي والله أنا دي أصلا ما حصل مشيت ليه في الجزار هو قصر معاي بي حاجة وأنت ذاتك ما بتقصري والله بتجينا في الحلوة والمرة، وأسماء بتي كلمتني بي كلامك، ونحن ما عندنا أي كلام بعد القلتي ده يا أختي، هو ولدك محمد ده نلقي أحسن منو وين وليدك صلاي ما شاء الله ومؤدب وود حلال.

كان هذا المدح كافيًا لأن يجعل زوجة المرحوم سليمان الجزار في قمة سعادتها، خاصةً وأن والدة أسماء كانت حريصةً أن تنادي بول ميانج أمامها بولدك محمد أثناء حديثها، فهي تعلم بأنها تحب أن تسمع من كل أهل القرية مثل هذا الكلام، لذا رأت أن تعزف على هذا الوتر الذي يجعلها تتراقص طربًا.

كانت أسماء في تلك اللحظات داخل المطبخ (التكل) تنصت للحديث الذي يدور، وبعدما تأكدت تمامًا من أنهما قد فرغتا من الحديث، دخلت عليهما تتظاهر بالخجل المصنوع الذي لا تجيده، فهي كانت تفعل الأفاعيل من قبل مع صديقها كوجاك، لدرجة أنها قد تعرت أمامه تمامًا عند زيارتها له في المدينة قبل أعوام.

ولكن ولأن صديقها كوجاك قد اختفى تمامًا منذ زمن بعيد، ولا أحد يدري عنه شيئًا، وفقدت هي الأمل فيه، لذا تخلت عن شقاوتها القديمة وأصبحت تحترم كل أهل القرية الذين عذروا انفلاتها ذاك لفترة المراهقة التي كانت تمر بها، وبادلولها الاحترام وأحبها الجميع حتى وقع عليها الاختيار لتكون زوجة لبول ميانج الذي أصبح ناجحًا في تجارته التي ورثها من المرحوم سليمان الجزار.

ثور كبير وسبع خرفان أخرى ذُبِحت في ذلك اليوم الذي نسيت فيه زوجة سليمان الجزار حزنها تمامًا، وأعداد كبيرة من النساء في

ركن قصي وضعن أمامهن إناءً كبيرًا مليئًا بالماء (طشت) بداخله قرعة كبيرة. حملت إحداهن قصبتان رقيقتان لتضرب عليها، فتصدر صوتًا أشبه بموسيقي كلاسيكية.

كانت بعض النساء يتمايلن على إيقاعها، ويرددن أغنيات من تأليفهين الخاص في لوحة غنائية جميلة لا يستطيع أمهر الموسيقيين تأليفها.

وكانت مجموعة أخرى من الفتيات في جانب آخر من ساحة المنزل يتسابقن ويتنافسن في الطهي وعلى وجوهن علامات البهجة والسرور.

أما أسماء فكانت تتوسط فتيات القرية وشعرها متدل بشكل لا تستطيع تصوره، وعلى قدميها وكفيها رسوم من نقش الحناء، وهي في أجمل الثياب تجلس على أفخم أطقم الجلوس التي اشتراها بول ميانج خصيصًا لهذا الزواج.

كان عدد كبير من التجار المخضرمين الذين قدموا من المدينة لمشاركة زميلهم بول ميانج يجلسون في الصوان الفخم مع رجال وشباب القرية الذين كانوا يتناولون وجبة الغداء، ويرتشفون القهوة الساخنة والشاي.

أما حسون وصديقه العريس بول ميانج فكانا يتوسطان مجموعةً من شباب القرية بمنزل حسون يحتفلون بطريقتهم الخاصة، ويتشاورون في أمر إقامة الحفل الغنائي الساهر الذي لا بد له أن يليق بصديقهم

وجزار القرية الشهير التاجر المعروف بول ميانج، أو محمد سلميان كما كان لا أحد يجرؤ بأن يناديه بغير هذا الاسم الجديد.

(بالألف ابتديت الغناء وبالباء بحبك أنا وبالجيم جميلة مهذبة ناري نار دردق زينة) بهذه الكلمات التي يعرف جيدًا مدى أثرها على أهل القرية افتتح المطرب الشعبي الشهير آنذاك وصلته الغنائية الأولى.

لقد كان هذا المطرب حديث الناس في كل منطقة جبال النوبة، وكان مشهورًا جدًّا ومطلوبًا على مستوى كبير من الناس، والذي كان يدعوه لإقامة حفل في ذلك الزمان فهو أكيد من أكابر المنطقة، لذا وقع عليه الاختيار من قبل مجموعة شباب القرية الذين كانت مهمتهم الإعداد لحفل زواج صديقهم وتاجر القرية وجزارها الوحيد.

كانت تلك الليلة من أجمل الليالي بكل المقاييس في القرية الوادعة التي يجمع أهلها أجمل صفات التراحم والتكافل، والتي لولا أن أعدادًا كبيرة منهم قد هجرت القرية بعد اندلاع الحرب الأولى لكانت قد أصبحت الآن أفضل من المدينة، يهاجر إليها الناس من كل حدب وصوب، ولكن هي الحرب التي ما زالت مستمرة ويتوقعون اندلاعها مرةً أخرى بالقرية في أي لحظة لتحرمهم من أجمل بقعة أحبوها وعاشوا فيها مئات السنين.

وبالفعل قبل أن تمضي تلك الليلة الغنائية الساهرة، وبينما كان

مطربهم الشعبي يهم بالصعود إلى خشبة المسرح لمواصلة وصلته الغنائية الثانية، إذ بالجميع يتفاجأ بأصوات الانفجرات الداوية التي هزت ساحة الحفل، وانفجار لاحق قريب جدًّا من المكان، وسيل من الذخائر المضيئة يغطي سماء القرية.

قوة كبيرة من قوات الحركة الشعبية تهاجم القرية من الناحية الغربية في تلك الأثناء. عمت الفوضى المكان ودخل الخوف على قلوب الجميع.

جموع غفيرة من النساء والأطفال والرجال يصرخون هاربين من القرية بالجهة الشرقية نحو المدينة، انفض سامر المحتفلين في ثوان.

وتبدلت أفراحهم أحزانًا جعلت القرية جحيمًا لا يُطَاق، وذلك حتى بعد هدوء الأحوال عندما استطاعت قوة كبيرة من الجيش السوداني استعادتها من قبضة قوات الحركة الشعبية بعد عام كامل من وقوع الهجوم الغاشم.

رحلة إلى المجهول

لم يلتق حسون منذ ذلك الوقت حتى يومنا هذا بصديقه بول ميانج ولا يعرف عنه شيئًا، لقد هجر القرية أغلب سكانها منذ تلك المأساة التي وقعت، مات من مات وهرب من هرب، ولم يبق من سكانها الأصليين سوى القليل.

لقد وجد حسون نفسه فجأةً وحيدًا وغريبًا بمنطقة لم يألفها كقريته التي نشأ وترعرع بها، بالإضافة لمأساته تلك ظل يواجه بالمدينة التي انتقل ليعش فيها بعد دمار قريته مضايقات كثيرة من قبل قوات النظام التي كانت تشك في كل تحركات أبناء المنطقة وتمنعهم حتى من ممارسة حياتهم الطبيعية.

في تلك الأيام بالذات كانت حكومة الجبهة الإسلامية المسيطرة على مقاليد الحكم في البلاد تطارد كل من لا ينتمي إليها بصلة، خاصة الذين كانوا ممن لا يرتادون المساجد كثيرًا، وكان حسون من هذا النوع، لذا واجه أشد أنواع المضايقات الأمنية التي جعلته يقرر أن يترك البلاد بأكملها ويهاجر إلى الأبد، بدلًا من العيش

في ذلك الجحيم الذي أصبح لا يطيقه.

وكان بإمكانه النجاة من تلك الكارثة التي وقعت في ذالك اليوم المشؤوم عندما كان القارب المتهالك يترنح بهم وتتقاذفه الأمواج، قبل أن تتناثر أجـزاؤه في ظلمات البحر المتوسط، ويموت هو وثلاثمائة آخرين كانوا معه على متن القارب، كان بإمكان حسون ذلك لو أنه لم يتعرض لتلك الظروف القاسية التي دمرت قريته وجعلته يقرر الهجرة ويترك كل البلاد إلى الأبد.

غـادر حسون حسون المدينة متجهًا إلى عاصمة السودان في الشمال، بعد أن اتخذ قراره المصيري بالهجرة، واستطاع أن يجتاز كل نقاط التفتيش المنتشرة على طول الطريق دون أن يتعرض لأي مضايقات، ولكن في كل خطوة كان يخطوها يزداد خوفه، وتترسخ قناعته بقراره أكثر من قبل.

لقد أصبحت جميع مناطق جبال النوبة جحيمًا لا يطاق وهو لا يستطيع أن يعيش خارج جغرافيته التي وُلِد فيها، ولا يستطيع أيضًا الاندماج في أي جزء من أجـزاء السودان الأخـرى، لذا يجب عليه المغادرة إلى حيث يقوده الحظ.

وبالفعل قادته أقداره وحظه العاثر إلى تلك المجموعة، عندما كان يهيم على وجه حائرًا بالسوق الشعبي بالخرطوم، نهاية وجهة

العربة التي كان قد استقلها من المدينة التي قدم منها.

واضح كل الوضوح من ملامحه وثيابه التي كان يرتديها أنه لا ينتمي إلى هذا المكان بأي صلة، فتى أغبر أشعث، رث الثياب، هزيل الجسد، يتنقل بعينيه المحمرتين من تعب السفر يمنةً ويسرةً وهو يحملق في لافتات الدعاية المضيئة متعجبًا، شخص مثل هذا كان من السهل جدًّا أن يكون صيدًا ثمينًا لعصابات الاتجار بالبشر التي كانت منتشرةً وبكثرة في العاصمة الخرطوم.

وبالفعل في أقل من ثانية تقدم نحوه أحد الشباب في كامل أناقته وحياه، وتظاهر له بالود والطيبة الزائفة، وبدأ ينهال عليه بالأسئلة من نوع، من أين أتيت، وفي أي حي من أحياء الخرطوم تقيم، وأسئلة كثيرة استطاع بمهارته أن يوقع بها حسون في شباكه.

وبعد معرفة الشاب ماذا يريد حسون قال (يا زول الخرطوم دي ذاتها ما نافعة، اسألني أنا، لي فيها أكتر من عشرين سنة، ما قدرت أعمل أي حاجة تنفعني، ونصيحتي ليك يا فردة، قبل ما القريشات المعاك تكمل اتخارج من البلد دي، والله أنا أصحابي كتار سفرتهم برا هسع بيضربو لي من أمريكا، وأستراليا وألمانيا مرطبين آخر ترطيبة).

كانت هذه الكلمات فقط هي التي حفزت حسون، وجعلته يوافق دون تردد، فهو لم يسمع بأسماء تلك البلدان التي كان يذكرها له ذلك

الشاب الوسيم إلا عندما كان يدرس حصة الجغرافيا بمدرسة قريته الابتدائية التي تخرج منها قبل أعوام بعيدة جدًّا.

وكونه الآن وبمساعدة هذا الشاب الطيب يستطيع السفر إليها، لماذا يمانع إذًا، هذا بالإضافة إلى قناعته الشخصية التي أوصلته إلى استحالة العيش في السودان بعد تعرض قريته لذلك الهجوم المسلح الذي دمرها بالكامل، وهجرها أهلها الطيبون، وفقد هو صديقه بول ميانج الذي كان سيدعمه ليكمل مسيرة حياته.

ملعونة تلك الحرب التي اندلعت دون سابق إنذار ... (بس ما عندي لا جواز ولا بطاقة ولا جنسية) هذا ما قاله حسون لذالك الشاب، والذي بدوره أقنع حسون بأن لا يهتم لمثل هذه الأمور طالما هو بجانبه (م تخاف يا فردة) كلمتان فقط قالهم الشاب هذه المرة، ثم اصطحب حسون ليقضي معه تلك الليلة بمنزله الكائن بأم درمان، امبدة حمد النيل خلف ميدان المصارعة المشهور.

وفي صبيحة اليوم التالي اصطحبه الشاب هذه المرة إلى أحد المكاتب الكائنة بزقاق ضيق جنوب غرب (صنية القندول) بالسوق العربي وسط العاصمة الخرطوم، وعرضه بضاعةً على التاجر صاحب المكتب المختص في عمليات التهريب البشري، ثم ودع حسون وانصرف عنه بعدما طمأنه بأنه سيكون بخير ويجب ألا ينساه

عندما يصل إلى أوربا، فليهاتفه على الأقل إن لم يستطع دعمه ماديًا.

جلس حسون حائرًا مشتت الذهن شارد الفكر، وهو يحملق في ذلك الرجل الضخم الذي يضع على أذنه اليسرى شيئًا أشبه بعلبة السجائر ماركة (برنجي) التي كان يحبها الكابلي مساعد محمد صلصة على عربة القرية، ويتحدث ...

- خمسين مليون بتاعت شنو يا زول، أنا بكرة تاني مرسل ليك خمسة أنفار، حيوصلوك بعد بكرة، ودابر توصلني الخمسة وخمسين مليون على حسابي يوم السبت كاملةً، أنت عارف الجماعة لو ما أديناهم حقهم حيقفلو لينا الدرب ده، وناكل عيش من وين.

ثم يصمت قليلًا، ليواصل حديثه هذة المرة بلغة لا يكاد يفهمها حسون:

- بص يا بيه أنا أولت للراجل بتاعك، كل حاجة ولازما توصلني الفلوس ديت على حسابي يوم السبت، علشان أعرف أمشي أموري.

كل هذا وحسون لا يزال في جلسته تلك، مذهولًا ومتعجبًا مما يرى ويسمع، وبعد تجاهل تام كل هذه المدة لحسون، يلتفت إليه الرجل ليقول له:

- معليش يا ولدي شغلنا ده يجنن الزول عديل، نسيتك والله فطرته ولا لسه؟

تنفس حسون الصعداء واعتدل في جلسته، بعد سماع هذه

الكلمات التي نزلت عليه بردًا، وقال للرجل:

– ضربت البوش قبيل، وشربت ببسي كمان يا عمك، أنا دايرك تخارجني من البلد دي بس.

ضحك الرجل ضحكةً مجلجلةً هزت المكان، وطمأن حسون بأنه سيغادر العاصمة اليوم ليلحق بعدد أربعة أشخاص آخرين بمدينة في شرق السودان، هم في انتظاره ليكتمل العدد حتى يتمكنوا بعد غد من المغادرة والتوجه إلى تلك الدولة المجاورة عبر الجبال والوديان الوعرة.

ثلاثة أيام كاملة بلياليها قضاها حسون ورفاقه في تلك الطرق الوعرة عبر سلسلة جبال ضخمة، ذلك قبل أن ينزلوا الآن ضيوفًا على أرض تلك الدولة، وبالتحديد أمام لوكاندة كبيرة بوسط أكبر مدنها، كان يرتادها السودانيون بمختلف أعراقهم ووظائفهم.

وقف حسون يحملق على لوحة كُتِب عليها مرحبًا بكم، وُضِعت أعلى سلم البناية من الداخل، ولم يمكث حسون كثيرًا بهذا المكان، فهو قبل أن يغادر السودان قد عمل ألف حساب لرحلته المجهولة هذه.

لم ينس أن يحمل معه بعض أرقام التلفونات الخاصة بمجموعة كبيرة من معارفه من أبناء جبال النوبة الذين سبقوه إلى هذه الدولة منذ اندلاع الحرب الأولى.

وبمعاونة أحد التجار السودانيين استطاع أن يتصل بهم ويخبرهم

بمكانه بتلك اللوكاندة الشهيرة، وسرعان ما جاء إليه أحدهم في نفس اليوم وصحبه معه إلى مقر سكنهم بشرق المدينة.

وكان لا بد لحسون أن يستيقظ غدًا باكرًا للذهاب بصحبة أصدقائه إلى أقصى الغرب، حيث مقر المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئيين، حتى يتمكن من التسجيل كطالب لجوء لكي يتفادى العقوبات الرادعة التي يمكن أن يتعرض لها في حال القبض عليه من قبل السلطات الحكومية، والتي قد تعرضه للترحيل الفوري إلى بلاده، خاصةً وأن حسون يعتبر مخالفًا للقوانيين لدخوله البلاد بطرق غير شرعية.

لم يكن حسون يعرف شيئًا عن كل هذه الأشياء من قبل فهو في قريته لا يحتاج لأي أوراق ليتجول بها، وحتى عندما يسافر إلى المدينة لا أحد يعترض طريقه لمثل هذه الأسباب، وكل ما تعرض له كان بسبب تلك الحرب اللعينة.

وبالفعل استطاع حسون في ذلك اليوم أن ينال اعتراف مفوضية اللاجئيين، وتم منحه وثيقةً تثبت بأنه قد أصبح ضمن اللاجئيين المعترف بهم، ويحق له حسب القوانيين المعمول بها أن يتمتع بالإقامة داخل حدود تلك الدولة دون أن يعترضه أحد، وعليه احترام قوانيين البلد المضيف والعمل بمقتضاها.

ظل حسون مدة سبعة أعوام كاملة قضى معظمها متنقلًا بالمترو والميكروباص والأوتوبيس من مقر سكنه إلى مقر المفوضية، كان في كل مرة يتردد عليها يشكو نفاذ صبره، وأنه لم يستطع أن يندمج في هذا المجتمع الذي وجد نفسه فيه غريبًا، وهو يعاني حسب شكواه تمييزًا واضحًا لا يستطيع تحمله.

كثيرًا ما كان يتعرض في تنقلاته داخل هذه المدينة لهذا النوع من التمييز، وأنه ذات مرة وبينما كان واقفًا داخل الأتوبيس بجوار سيدة كانت تجلس بأحد المقاعد، طلبت منه تلك السيدة أن يبتعد عنها قليلًا لأنها لا تستطيع التنفس جراء الرائحة النتنة التي تفوح منه.

وقال أيضًا أنه لم يسلم حتى من طفلها الذي كانت تحمله على أرجلها، ولقد سمعه يقول لوالدته (ماما ماما هما دول ما بيستحموش ولا إيه). هكذا قال الطفل لأمه.

وأما ما أغضبه أكثر فهو ما تعرض له عندما كان يقف بجوار أحد عربات الفول المنتشرة بالمدينة، يريد أن يتناول إفطاره، فإذا به يفاجؤ بأحد الرجال يقول لصاحب عربة الفول (إيه يا عم مش شايفني يعني إزاي تمشي الأسود دا قبلي) يقصده هو.

لذا في آخر شكوى له أوضح للموظف أن صبره قد نفد تمامًا، ولا يطيق العيش بهذه الطريقة، فنعم عندما كان بقريته يعاني التمييز

حسب ما كان يمارسه أهل القرية تجاه قاطني الحي الذي يسكنه هو، حيث يعتبرونهم من سلالة العبيد، وينظرون إليهم نظرةً دونيةً، ولكن لا أحد من أهل القرية يستطيع أن يجهر بالتمييز بهذه الطريقة التي هو يعاني منها الآن.

قارب الموت

نعم كان بإمكانه النجاة من تلك الكارثة التي وقعت في ذلك اليوم المشؤوم عندما كان قاربهم المتهالك يترنح وتتقاذفه الأمواج، قبل أن تتناثر أجزاءه في ظلمات البحر ويموت هو وثلاثمائة آخرين كانوا معه على متن القارب، كان بإمكان حسون ذلك لو كانت مفوضية شؤون اللاجئيين قد استمعت لشكواه، واهتمت به.

لقد عاد حسون في ذلك اليوم من مكاتب المفوضية غاضبًا آسفًا، كل الأبواب مغلقة أمامه إلا بابًا واحدًا فقط هو باب الهجرة، أن يغادر هذا البلد كما استطاع أن يغادر بلده السودان وبأي طريقة وبأي ثمن لا يهمه شيء سوى أن يغادر، وينأى بنفسه بعيدًا إلى أرض الأحلام بلاد العم سام.

وبالفعل بعد أقل من أسبوع واحد استطاع حسون أن يجد له مخرجًا بواسطة أحد السماسرة المنتشرين في أكبر الميادين وسط عاصمة تلك الدولة. مهمتهم الأساسية هي التهريب وتجارة الأعضاء البشرية.

قال له السمسار أن عملية التهريب تتطلب السرية التامة، وعليه

أن لا يخبر حتى أصحابه الذين يقيم معهم، كما عليه أيضًا أن يأتي فورًا ولوحده عندما يتصل عليه تلفونيا، ومعه الأموال المطلوبة كاملة، وذلك في الأسبوع القادم عندما يكتمل العدد المطلوب للرحلة، والتي كان من الفترض أن تكون وجهتها شواطئ إيطاليا.

عاش حسون أسبوع الانتظار هذا قلقًا متوترًا أصابه الإعياء من كثرة التفكير، فهو ما زال في حنينه ذاك لقريته يتذكر أيامه الجميلة التي عاشها بين رفاقه وأهله الطيبيين، خاصةً أيام طفولته التي كان يفرح ويمرح فيها تحت ضوء القمر الجميل مع فتيان وفتيات القرية.

وما زال حزنه وجرحه لم يندمل بعد فقدانه لصديقه بول ميانج الذي لا يدري إلى أين تقاذفته الأقدار بعد تلك الحرب اللعينة، التي اندلعت وشتت شملهم، ولكن لا بأس طالما أنه يستطيع بعد غد المغادرة إلى أرض الحرية، ويقيم في أي دولة من دولها المتحضرة.

وبينما هو في ذروة أحلامة تلك، وفي غرفة مكدسة بمئات الشباب من مختلف البلدان الإفريقية جنوب الصحراء، وبالتحديد داخل بدرونات إحدى العمارات الشاهقة بمدينة ساحلية عريقة، وجد حسون نفسه بعد أربع ساعات فقط من لحظة مغادرته ليلًا مقر سكنه.

ولكن ما أدهشه أكثر هو عندما سمع أحدهم يناديه باسمه، فذلك الصوت لم يكن أبدًا غريبًا على مسامعه، وهذه اللكنة أيضًا يعرفها

جيدًا، التفت بسرعة ليجد أمام عينيه صديقه بول ميانج بشحمه ولحمه، لم يصدق عينيه أبدًا بكيا بكاءً شديدًا وجلسا بجوار بعضهما يعيدان ذكرياتهما الجميلة عن القرية.

وعند تمام الثالثة صباحًا طلب منهم أحد الرجال الاستعداد للتوجه إلى شاطئ البحر الأبيض المتوسط لينقلهم بقوارب صغيرة إلى القارب الكبير الذي كان ينتظرهم في عمق المياه الإقليمية بعيدًا عن سواحل المدينة، والذي سيبحر بهم إلى شواطئ إيطاليا.

لأول مرة يحس حسون بهذا الإحساس، لقد تملكه الخوف تمامًا حتى تصبب عرقًا وابتلت ثيابه بالكامل، نسي كل شيء حتى تلك الذكريات الجميلة التي كان يحملها لقريته، نساها وتبعثرت أحلامه فهو منذ قدومه إلى هذه الحياة لم يشهد مياهً بهذه الكثافة.

كانت الأمواج في تلك اللحظة تتلاطم وتنثر على وجوههم ذرات الرمال كأن هذا البحر المجنون ينذرهم بشيء ما قد يحدث.

تقهقر حسون وتراجع للخلف حتى أصبح في مؤخرة المجموعة التي كانت قد اصطفت للصعود على القارب، جلس على تلك الرمال الباردة وبجواره صديقه بول ميانج يقرآن سورًا من القرآن ويدعوان الله أن تمضي هذه الرحلة حتى نهايتها بسلام.

ولأنهما لا يملكان خيارات أخرى رددا هذه الكلمات (بسم الله

توكلنا على الله نصيبك يصيبك).

ثم قاما ولحقا بالمجموعة وصعدا القارب مع رفاقهم، انطلق بهم القارب إلى عمق المياه، وهناك عند نقطة المجهول بدأ القارب اللعين المتهالك يترنح ويتمايل بهم، وتتقاذفه الأمواج وهم بداخله يصرخون وينادون ويتضرعون إلى الله أن ينجيهم.

ولكن هيهات لقد تناثرت أجزاؤه وغرق في مياه البحر، واختفى تمامًا عن سطحه، فمات حسون وثلاثمائة آخرون كانوا معه على متن القارب.

١- كان بإمكانه النجاة من تلك الكارثة التي وقعت في ذلك اليوم المشؤوم لولا أن قريته تعرضت لذلك الهجوم الغاشم الذي تسبب في خرابها.

٢- كان بإمكانه النجاة من تلك الكارثة التي وقعت في ذلك اليوم المشؤوم لولا الحرب اللعينة التي اندلعت في بلاده.

٣- كان بإمكانه النجاة من تلك الكارثة التي وقعت في ذلك اليوم المشؤوم لو كانت مفوضية اللاجئيين قد استمعت لشكواه واهتمت بها.

٤- نعم كان بإمكانهم جميعًا النجاة من تلك الكارثة التي وقعت في ذلك اليوم المشؤوم لولا صراع حكامهم على كرسي السلطة.

هذه هي الترجمة الحرفية لتلك الكلمات التي وجدها فريق الإنقاذ

مكتوبةً بخط اليد وبعامية سودانية خالصة على ورقة يبدو أنها انْتُزِعت من أحد علب السجائر، وجدوها مغلفةً بطريقة جيدة بطبقات سميكة من أكياس النايلون، داخل جيوب البنطال الذي كان يرتديه حسون.

يبدو أنه قد كتبها قبل وقوع الكارثة بثوان قليلة، لذا كانت تحمل بعض الأخطاء الكتابية.

تمت - مايو ٢٠١٧

حسن أحمد يونس إبراهيم

(حسن يونس قابيرو)